الفصل الثالث
في السياسة

رشيد كرامي فقيد الوطنية والعروبة والاسلام في لبنان

عندما توفي رشيد كرامي رئيس وزراء لبنان اغتيالا، فان قليلين في لبنان والوطن العربي لم يشعروا بهول الخسارة والأسى والحزن لما اصاب لبنان من مأساة كبيرة ممثلة، هنا، بمقتل زعيم كبير من زعمائه وابن بار من ابنائه... فلقد اضيفت الى تاريخ لبنان الحديث، صفحة سوداء، الى صفحات اخرى... في تاريخ هذا البلد المنكوب... الذى تدمي جراحه طوال الوقت... ولا من يد حانية تضمد الجراح الراعفه... ولا من ضمير حيّ يجيب لهفة الملهوف واستغاثة المستغيث!

وما هذه الكلمات بين يدي وفاة هذا الراحل الكبير... الا محاولة سريعة، وموجزة، لوضع الرجل في المنظور التاريخي... لنعرف مدى الخسارة التي لحقت بالقضية اللبنانية ومن ثم القضية العربية بغيابه... فنحن لم نقصد الى البحث فيمن قَتل (بفتح القاف) رشيد كرامى. فهذا أمر فضلاً عن كونه من الصعوبه بمكان... فانه ليس من شأن هذا المقال الهبوط الى مستنقع الصراعات المقيتة التى أودت بحياة غالية هي حياة الفقيد رشيد كرامي، بتوجيه التهمة لهذا او ذاك او تبرئة ساحة هذا او ذاك، وحسبنا هنا ما قَصَدنا اليه...

سليل دوحة وطنية وقومية وارفة الظلال عميقة الجذور:

ورشيد كرامي ينحدر من اسرة عرفت بالوطنية الصادقة... والقومية المخلصة... والحماس الكبير للدين الاسلامي الحنيف... اسرة عميقة الجذور في تراب طرابلس الشام عاصمة الشمال في لبنان... تميزت بتوجهها نحو العلم، والعلم الديني بصورة خاصة... كما ان اسمها يدل على ما تميزت به العائله من مناقب أخلاقيه رفيعة... ولقد ساهم عبد الحميد كرامي، والد المرحوم رشيد كرامي، مساهمة عظيمة في قيام الكيان اللبناني واستقلاله... وعرف بعلائقة الوطيده مع دعاة الوحدة العربية وزعمائها على طول الوطن العربي وعرضه... ولعله من هنا جاء اخلاصه لفكرة الوحدة مع سوريا اولاً ومن ثم العالم العربي... ولا نريد أن نمر على هذه الرابطة العربية والروح النضالية التى ربطت بين عبد الحميد كرامي ورفاقه وزملائه في الحقل الوطني والقومي في كل بلاد العرب، مرور

الكرام... بل اننا سنقف عندها لنقول... انها رابطة شكلت مدرسة قومية كاملة... وكان لها أركانها ورموزها ومراكز ثقلها في كل موقع وساحة من أرض العرب... - ونحن هنا نذكر ولا نحصر - ففي سوريا كان ابراهيم هنانو وشكرى القوتلي ونبيه العظمه، وفي العراق كان سعيد ثابت واعضاء نادى المثنى، وفي فلسطين وشرق الاردن كان مفتى فلسطين الحاج أمين الحسينى وعزة دروزه واكرم زعيتر ومحمد على الطاهر وصبحى أبو غنيمة وغيرهم كثير، وفي مصر كان احمد زكى باشا وعلّوبّه باشا والنحاس باشا، وفي تونس كان عبد العزيز الثعالبى ومن ثم الحبيب بورقيبه، وفي الجزائر كان البشير الابراهيمي وعبد الحميد بن باديس... وقد اشترك هؤلاء على ترامي المسافات بينهم في آلية عمل مشتركة من اجل التحرير والاستقلال والوحدة العربية... ولقد حدثنى الاستاذ احمد السقاف انه تلقى ومنذ وقت مبكر رسالة من الحاج أمين الحسينى يدعوه فيها الى الكتابة عن فلسطين... وفى هذا ما فيه من عمق الوشيجه... والتعاون والتضامن... كمأنه فيه دلالة على أسلوب متميز... في العمل السياسي والاعلامي من اجل قضايا الوطنية والقومية...

على هذه المدرسة تتلمذ رشيد كرامي.. ومن لبانها رضع نسغ الوطنية والقومية على أفضل ما يكون.. حتى اذا توفى والده، تقدم لحمل الراية ليصبح رئيسا لوزراء لبنان، وأصغر رئيس في تاريخها، بعد أن انهى دراسته للحقوق في جامعة القاهرة... ولقد ملأ رشيد كرامي المركز أيضاً كأفضل ما يكون... وكان له فيه ادوار وطنية وقومية مشهودة... فقد كان احد اعضاء الجبهة الوطنية (١٩٥٧) والتى تشكلت للوقوف في وجه كميل شمعون الذى عرف بميوله نحو الارتباط بالغرب على حساب الاستقلال والتوجه العربي في لبنان... حتى اذا قامت الثورة (١٩٥٨) تريد الخلاص من حكم شمعون والانفتاح على الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا) أصبح رشيد كرامي أحد قادتها الكبار... وحتى اذا وضعت الحرب الأهلية اوزارها... وانتهى الجميع الى حلّ وسط، لا غالب ولا مغلوب، ترأس رشيد كرامي وزارة الانقاذ والعودة بلبنان الى الحالة الطبيعية... وكان تعاونه الاعظم في هذه المرحلة مع فؤاد شهاب رئيس الجمهورية المشهود له بالنزاهه والرغبة في الاصلاح الحقيقي.. وعندما قامت الحرب الأهليه الحالية (١٩٧٥) لم يستنكف كرامي عن حمل المسؤولية، بل لقد قضى نحبه.. وهو يمارس هذه المسؤولية.. حتى دفع ضريبة الوطن غالية.. دفع عمره..

مقومات شخصية سياسية عظيمة:

وانت اذا رحت تستقصي جوانب شخصية رشيد كرامي، ستجد مجموعة من الميزات، وطائفة من الصفات التى نادراً ما تجتمع لسياسي واحد... لقد تميز رشيد كرامي بالتالي:-

- عقل كبير.. وفهم عميق.. وخبرة متراكمة يوظفها في عمله السياسى أفضل توظيف.. وبحكمة كبيرة.. وتصرف مدروس..
- رمز عظيم.. وضمير يقظ وحرص كبير على الانطلاق من وطنية حتى الاعماق، ترفدها قومية حتى الاعماق.. وولاء للدين حتى الاعماق..

اما الوطنيه فيكفيها مناداته بوحدة لبنان.. واستقلاله والسعي الدؤوب لانقاذه من تمزقه وتشرذمه على اسس وطيدة من الوحدة الوطنية ومحاربة الطائفية.. والكانتونية.. ولقد كانت هذه مبادرة طوال الوقت.. منذ بدأ ممارسة العمل السياسى حتى وفاته رحمه الله..

واما القوميه فآيتها التوجه نحو الشقيقة سوريا.. والامة العربية بعامة.. بشكل يمثل ايمانا عميقا لا يتزعزع ولا يساوم ولا يهادن.. وولاء عظيم نحو القضية الفلسطينية وسنسوق مثالاً على هذا الولاء بموقفين للفقيد الراحل: الاول هو موقفه من اتفاق القاهرة (١٩٦٩) واخلاصه العجيب في تمريره، انطلاقا من فهمه ان لابدّ ان يكون للبنان دوره القومي العربي الأصيل في مقاومة الصهيونية.. وان للفلسطينيين على اخوتهم اللبنانيين والعرب بعامة حق فتح الحدود أمامهم لمهاجمة عدو الأمة العربية المشترك.. من ناحيتين ايضا الاولى تحرير الارض المقدسة واسترداد الحق المغتصب والثانية دفاعا عن لبنان من شر صهيوني مستطير وخطر استعمارى لا يرحم..

والثانى هو موقفه من حرب المخيمات.. وعمله بالسر والعلن.. لتخفيف الويلات عن هذه المخيمات، والعالمون بالامور يقولون انه بالنظر لجهود رشيد كرامي تقلصت المأساة الى حدود معينة.. ورفع رشيد كرامي قسطا ليس بالقليل من العذاب الواقع على سكان هذه المخيمات قتلا وتشريدا وتجويعاً وارهابا وخطفاً مما هو معروف عن هذه المأساة الرهيبة..

غاية الأمر، من هذه الناحية ان رشيد كرامي ادرك باصالة نادرة ان لفلسطين

والفلسطينيين على لبنان حق كبير وواجب مقدس.. حق المشاركة في الآلام والآمال.. حق النضال من الخندق الواحد.. مثله في ذلك مثل عناصر اخرى في لبنان ذات اخلاص كبير وتوجه أصيل، لم يتزعزع ايمانها يوما واحداً في الولاء المستمر للقضية الفلسطينية رغم الثمن الكبير الذى دفعته تقتيلاً وتصفية وتشريدا ونفيا في الأرض.. وانه ليس بلا مغزى هنا ان اتفاق القاهرة، هذا الاتفاق الذى ضحى من أجله كل مخلص في لبنان وكان تتويجا ورمزاً لدور عربي متميز للبنان كان فيه طليعة الطليعة.. وخط الدفاع الأول بين جميع دول الطوق، لم يتم الغاؤه الاّ في فترة تقديم استقالة رشيد كرامي وغيابه عن ممارسة السلطة..

● فرادة في الشخصية السياسية: فكما ان لكل شخصية مميزاتها ومفتاحها.. فقد كان لشخصية رشيد كرامي هذه المميزات وهذا المفتاح.. فبمقدار ما كان رجل السنة الأول – في مناسبات كثيرة – الا انه كان للبنان كله وبدرجة اولى.. فكونه زعيم السنة.. لم ينسه ايضا ولاءه لوطنه لبنان.. لبنان الذى يعم المسلمين والمسيحيين معا.. ولعلّه بين الرؤساء القلائل الذين حظوا باحترام كبير من جميع الاطراف لارتفاعه فوق مستنقع الانحياز..؟! وجعله التناقض الوطنى اللبناني اللبناني فوق الجميع يفعل ذلك من اجل الجميع!

ولعل هذا هو السرّ في انه لم يكوّن مليشيا مع ان كان لديه شارع سياسي كبير.. يضاف الى هذا تميزه بفصاحة نادرة.. ونبل ولباقة وترفع تشهد باصول كريمة وتربية نبيلة.. ففى اشد لحظات خلافه مع رئاسة الجمهوريه لم يؤثر عنه انه نسي أن يقول مخاطبا الرئيس او متحدث عنه: «فخامة الرئيس».. واذا كان سيبقى في ميدان الفصاحة والبيان شيء في تاريخ المسؤولية والمسؤولين في لبنان فسيحتفظ لرشيد كرامي بمكان التأنق في الكلمة الى درجة التوهج والتألق.. في استعمال اللغة العربية الفصحى المعبرة افضل تعبير.. زيادة على هذا فقد عرف عن رشيد كرامي نزاهته وترفعه عن استغلال السلطة للمكاسب الشخصية وهو من بين سياسيين قلائل في لبنان ممن حافظوا على هذه الخصلة الحميدة نذكر من بينهم ولا نحصر: كمال جنبلاط وريمون أده والياس سركيس...

● اسلوب سياسى متميز: عماده ومقوماته:-

- تفكيرعميق.. واعمال للذهن كبير.. والسهر على المشكلة.. والنوم والقيام عليها.. حتى يصل فيها الى القرار! حتى اذا وصل اليه لم يتزحزح عنه.. وقد أثر عنه انه كان

اذا صادف مشكلة ما عمد الى العزلة.. بعيداً عن الآخرين.. في مزرعته او بيته الريفي.. او اللجوء الى الصيد في البّر او البحر.. حتى يعطى لنفسه الفترة الكافية.. لتكوين الرأي والوصول الى القرار الصائب.. لقد كان رشيد كرامي بحق.. جديراً بكونه ينحدر من أمة شعارها «الرأي قبل شجاعة الشجعان».. وعلى هذا فهو معروف بين سياسيي لبنان بالحكمة وبعد النظر.. والتى لا تأتي الا من ادامة الفكر والوصول بالاشياء الى غاياتها بعد معاناة عقلية صارمة...

- التوقيت الدقيق.. فمن المعروف عنه.. حسن توقيته للامور.. اقداما واحجاما، سلبا أو ايجابا، مشاركة في الحكم، او انسحابا من ممارسة السلطة، تقديم الاستقالة، او تعليقها حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً! فهو بين السياسيين اللبنانيين، رجل القطيعة السياسية المعروف.. فاحجامه عن المشاركة في السلطة والذى كان يأتى دائما بتوقيت مدروس! كان يحقق له اكثر بكثير.. من المشاركة اذا كانت لا جدوى منها.. وهكذا فإن تعلله بالاستقالة الاخيرة ليس الا وسيلة او تكتيك لخدمة استراتيجية كبرى.. قصدها تمرير مخطط معين قوامه جمع الصفوف فى لبنان موحد، مستقل وطنى ذو توجه عربي، بعيداً عن المداخلات الصهيونية التي تشل الوجود اللبناني.. ولعله من هنا كان مصرعه!! فالجميع كان ينتظر لحظات الانفراج.. وتنفيذ خطة انقاذ لبنان والعودة به الى حالة الشفاء الكامل من السقم الذى لحق به منذ اثني عشر عاما! لقد عرف القتلة الغادرون هذه المرّة كيف يوقتون لاغتيال الرجل الذى يعرف كيف ومتى يضع عقرب الساعة على اللحظة المناسبة!

- التحكم الشديد بالاعصاب والقدرة الكبيرة على ضبطها انتظاراً للحظة المناسبة ولعمرى ان احدى بديهيات عمل السياسي القدير، السياسي الذى ينطلق من قاعدة استراتيجية صلبة، والسياسي ذي الوضوح الذهنى والاستيعاب الكبير لما يريد.. السياسي الذى ليس كالريشة في مهب الريح.. انه يفكر ببرود وانه لا يقع ضحية الانفعال والارتجال.. ولقد كان رشيد كرامي من هذا الرعيل من الساسة العرب، الذى لديه قدرة هائلة على قول كلمته.. واستلال سيفه في الوقت المناسب.. ليس قبل ولا بعد!!

فاذا كان البحر في حالة مدّ عمد الى سفينته فاطلق عقالها.. واذا كان في حالة جزر.. انزوى جانبا.. بانتظار الفرصة المناسبة.. يحُركهُ عقل مستنير وارادة كبيرة.. وقدره على ضبط النفس جليلة.. وكما هو معروف فان السياسة فن الممكن.. وليس من

فضائل السياسي، السياسى الحقيقى، وليس الدبلوماسى، السياسى رجل الدولة، أن يقع ضحية أي عامل من تحريض.. وتَهويل.. او تزييف للحقائق.. يجعله يخرج عن مركز ثقله.. ويصبح ضحية الظروف.. وفريسة فقدان زمام المبادرة والتصرف السديد.. ولقد كان، رشيد كرامي، حقا وصدقا، من السياسيين المشهُود لهم بضبط الاعصاب بصورة خارقة.. كما هو الانطلاق من التفكير العميق.. الذى يمليه الاخلاص الكبير بالوصول بالوسائل الى اهدافها.. وغاياتها...

★ ★ ★

من هنا ومن تدارس هذه الخلفيات.. وهذه المنطلقات.. وهذه الشمائل والمميزات في شخصية الفقيد الراحل رشيد كرامي نتبين مدى الخسارة الفادحة التى لحقت بلبنان والعرب، من جراء غيابه بهذا الشكل الغادر، الذى تم به.. فرحمة الله عليك ايها الراحل الكبير.. جزاء وفاقاً على مواقفك وجهادك من اجل لبنان والقضية العربية وفلسطين الجريحة.. وعوض الله على لبنان الشقيق برجالات يخرجونه من محنته.. ويسيرون في هذا على درب ابنائه الابرار الذين سقطو صرعى اخلاصهم العميق ومن بين هؤلاء وربما في طليعتهم الراحل الكبير رشيد كرامي..

مراكز القوى ونموذج صنع القرار الاسرائيلي*

يعالج هذا الكتاب، والذي هو في أصله، أطروحة لنيل الدكتوراه، موضع مراكز القوى، ونموذج صنع القرار في الكيان الاسرائيلي. وهو موضوع جدير بالاهتمام، ومعالجته على هذا المستوى، إضافة حقيقية إلى علم الاجتماع السياسي. وبخاصة أنه يتناول دولة يهمنا أن نعرف عنها الكثير، وبشكل مدروس دراسة جادة متأنية مستقصية. وهذا ما حاوله الكاتب وبذل فيه جهداً طيباً، فجاء هذا الكتاب الذي نتناوله بالدراسة والنقد.

يتناول هذا الكتاب أول ما يتناول ظاهرة القيادة الرسمية وعلاقتها بالسلطة الفعلية في اسرائيل، وهو يعتبرهما غير متطابقتين. فالكثير من صلاحية السلطة بأيدي أشخاص مستترين. فالصفوة هي شخصيات تتمتع بالقوة، تحولت في اسرائيل إلى ما يشبه المؤسسات غير الرسمية، وشكلت هذه الصفوة نوعاً من الدويلات المنفصلة.. ومن هنا بدأ ظهور مراكز القوى. والتي يعرفها الكاتب بأنها أولئك الأشخاص الذي يملكون القوة في النظام السياسي. وهم في وضع يؤهلهم لصناعة القرارات الهامة في المجتمع، وفي رسم السياسة العامة للدولة بالاستناد إلى عناصر القوة فيهم، والتي تأخذ شكل صفات سيكولوجية، كقوة الشخصية أو الكاريزما، تمثيلاً لقوى اجتماعية وسياسية معينة، أو عن طريق وضعهم الرسمي في السلطة. وعلى هذا فان مراكز القوى تتشكل من جزأين أو شطرين: الشطر الأول هو المراكز وهي هنا تساوي الأشخاص - وليس المؤسسات - الذين يمثلون بؤرة القوة. والشطر الثاني هو القوى، والتي تقف وراء هؤلاء الأشخاص وتدعمهم.

بعد هذا يتناول الكاتب كيفية وصول مراكز القوى هذه إلى ممارسة قوتها ونفوذها. فيتحدث عن العوامل التي تؤثر في بروزها، ويتعرض لأثر التراث الفكري والأيديولوجي وكيف أن الكتب اليهودية القديمة تمجد القيادات الكارزمية، ويسوق الكاتب نموذجاً حديثاً على هذا التأثير، بموشي دايان، الذي يعادل أثره في التاريخ الاسرائيلي الحديث بأثر

---

* تأليف الدكتور نظام بركات.

النبي موسى في التاريخ اليهودي القديم. كما أن هنالك تأثيراً لارتباط قيادات مراكز القوى بالقيادات التاريخية. فشخصية مثل أبا إيبان تجعل لها مثلاً وقدوة بحاييم وايزمن، وبيجن من جابوتسكي. ويصف الكاتب الجيش، وهو البوتقة التي يصهر فيها المجتمع الاسرائيلي، بأنه أقصر الطرق للدخول إلى مراكز القوى. وفضلاً عن ذلك فان النظام الانتخابي والحزبي وسيلة أخرى للوصول إلى مراكز القوى. فالاحزاب تحرص على وضع أكفأ الأشخاص وقياداتها على رأس القوائم الانتخابية. وحتى عام ١٩٧٧ كان ينظر إلى قيادات حزب العمل على أنها تمثل أهم مراكز القوى في النظام السياسي. حتى إذا ما جاء الليكود، وسيطر على الكنيست والوزارة، حدث انقلاب في مراكز القوى. ويبرز بنحاس سابير كمثل على مراكز القوى الحزبية بالنظر لتحكمه في الجهاز الحزبي لحزب العمل فترة غير قصيرة. ويظل للعلاقات الشخصية دورها في الوصول إلى مراكز القوى. فالأشخاص من جيل الرواد يقومون بدور المؤسسات السياسية التي ترفع وتخفض، ويؤثر دورها في تقدم بعض الشخصيات وجعلها تصبح من مراكز القوى. وهذا هو شأن بن غوريون مع كل من موشى ديان وشمعون بيريس.. وغيرهما. وتلعب القيم المتطرفة والمتعصبة في مجتمع غير مستقر، كالمجتمع الاسرائيلي، دورها كوسيلة أخرى للتقدم إلى مراكز القوى.

هذه هي العوامل والوسائل التي تتحكم في بروز القوى، فما هي مراكز القوى؟ ومن هم أهم رموزها؟ وهذا ما يجيب عليه الكاتب بأسلوب محمود. ويصنفها على الوجه التالي: اللجنة الوزارية للأمن والخارجية.

وترتبط قوة هذه اللجنة بقوة أو ضعف شخصية رئيس الوزراء. فبينما نجد أن بن غوريون وغولدا مائير يهملان شأن هذه اللجنة: نجد أن رئيس وزراء آخر مثل أشكول يهتم بها ويجعلها تمارس اختصاصاتها. ومثل هذه اللجنة، نجد لجنة الشؤون الخارجية والأمن بالكنيست. أمّا المؤسسة العسكرية فانها تتيح لبعض عناصرها التمتع بمراكز القوى سواء خلال الخدمة العسكرية أو خارجها. ومن أهم هذه العناصر وزير الدفاع، ورئيس الأركان الذي يرأس أعلى جهاز عسكري فني، والذي هو أيضا رئيس فني لمجلس الحرب، ومسؤول عن صياغة المذهب الأمني للجيش. ويأتي بعد وزير الدفاع ورئيس الأركان، رئيس الاستخبارات. ويضرب مثلاً عليه بأهارون ياريف، الذي يطلق عليه لقب النبي أو العرّاف بالنظر لما يتجمع لديه من معلومات ومعارف ذات أثر كبير في اتخاذ القرار.

أمّا أهم شخصيات مراكز القوى، فيعدد الكاتب منها عدداً غير قليل من الشخصيات الاسرائيلية المعروفة. فدافيد بن غوريون شخصية كاريزمية، وله الفضل في تأسيس جيش محترف. أما ليفي أشكول فهو موهبة سياسية ومقدرة إدارية واسعة. وغولدا مائير تتمتع ببداهة وواقعية وعلاقات. وبنحاس سابير طاقة فريدة على العمل، ومدير عام للدولة. وموشي ديان يمتاز ببراجماتيته ومقدرته على اتخاذ القرارات الحاسمة. وهو يحافظ على نفسه كمركز قوة طوال الوقت، حتى ان غولدا مائير لتقول: «بدايان توجد حكومة، وبدون دايان لا توجد حكومة». أما سرّ تفوق بيجن كمركز للقوة فهو سياسته في العنف والتطرف. وهو صاحب القول المشهور: «أنا أحارب فأنا موجود». وما شمعون بيريس إلاّ الولد الأعجوبة للبيروقراطية الاسرائيلية. وفي سن الثلاثين يعتبر المساعد الأول لبن غوريون.

يقول الكاتب كل هذا عن هذه القيادات ومراكز القوى، ولكنه لا يبرز الوجه الآخر لهذه القيادات والمراكز، فهو لا يوضح، إلى أنه إلى جانب فاعليتها وكاريزميتها، لا تخلو من نزعة عدوانية، وتمحور على الذات يجعلها تنكفىء على نفسها ولا تتجاوزها إلى التعاطف مع الآخرين... فهو مثلاً لا يحدثنا عن الوجه الآخر لموشي دايان وكيف أنه لا يخلو من عيوب كثيرة... وإنه بالنسبة للعرب يعتبر شخصية قمعية تتفنن في العدوان والتعذيب والعقاب الجماعي والإرهاب وهدم البيوت.. وإنما يكتفي بالحديث فقط عن البعد الكارزماتي في هذه الشخصية العجيبة والتي لا تخلو من التعقيد! وإلى هذا فإن تاريخ الكيان الاسرائيلي مليء بالفضائح التي ارتبطت بممارسات هذه الشخصيات الفردية والسلطوية، من مثل فضيحة لافون التي طالت كثيراً من هذه الرموز. ولم يخل من مثلها، أشخاص كثيرون من مراكز القوى هذه. وهم صانعوا التاريخ الاسرائيلي من مثل بن غوريون.

ومهما يكن من أمر، فإن الكاتب بعد أن يقدم لنا هذه الأفكار والحقائق عن مراكز القوى وبروزها ومواقعها ورموزها، ينثني للحديث عن اتخاذها للقرار ويضرب مثلاً على ذلك بقرار حرب ١٩٦٧، الذي تصوغه الوزارة والكنيست والمؤسسة العسكرية، بالإضافة إلى دور فعال لكل من الهستدروت والوكالة اليهودية. وقد برهنت نتائج هذه الحرب أن الجهود التي قامت بها القيادات التاريخية، بن غوريون وبيجن وموشي دايان، أظهرت وجود مراكز قوى خارج النطاق الرسمي فاقت في سلطتها بعض القيادات الحاكمة مثل ليفي أشكول وأبا أبيان.

ويتطرق الكتاب قبل الخاتمة إلى المدخلات التي تصنع مراكز القوى، فيذكر هنا المدخلات الأيديولوجية. فالأيديولوجية الصهيونية شجعت الشعور بالتميز والتفوق في الفكر اليهودي. وقد ساهم هذا المبدأ في تسهيل القول بفكرة تميز شخصيات كارزمية مما أدى إلى وجود مراكز قوى. كما يتحدث عن المدخلات التاريخية التي تتمثل في أن حياة الجيتو ولّدت إيماناً بدور الفئة المختارة، ومجموعة الحكماء في إدارة الجيتو، مما أسهم في قبول فكرة حكم الأقلية. كما أن تاريخ الحركة الصهيونية يمثل تاريخ مجموعة من الرواد استطاعوا أن يثبتوا قدراتهم في المجال الأيدلوجي والتنظيمي بحيث أصبح ينظر إلى تاريخ الحركة الصهيونية على أنه تاريخ زعامات، وإن تطور الحركة يمثل مراحل قيادات معينه يتزعمها أشخاص من أمثال ليوبنسكر، وموسى هس وجابوتنسكي وحاييم وايزمن وبن غوريون، مما جعلهم يشكلون مراكز قوة مستقلة داخل الأجهزة الرسمية. أما المدخلات الاجتماعية فإنّها تترك أهمية للسلطة وبخاصة في مجتمع متغير، يتصف بالتفكك وعدم التكامل، كالمجتمع الاسرائيلي، كما أن الكبوتز، المزارع الجماعية اليهودية، لعبت دوراً كبيراً في خلق نموذج اليهودي الرائد الذي يملك القدرة على المبادرة.

هذه هي أهم القضايا والجوانب التي يعالجها الكاتب، الذي بذل جهداً طيباً في الرجوع إلى المراجع والمصادر العربية والانجليزية وحاول أن يكون شمولياً. على أننا ينبغي أن نذكر هنا أن جهد الكاتب وإن كان أضاف الكثير، وسدّ فراغاً في المكتبة العربية في موضوعه الجديد هذا، إلاّ إنه اشتكى من تعميم وصف مراكز القوى في اسرائيل على ما هي عليه في العالم. وفي هذا ما فيه من تجاوز للحقيقة فالتجربة الاسرائيلية والأيديولوجية الصهيونية وما سيطر عليهما من نزعة الشعور بالأقلية، وما شابهما من عقدة الشعب المختار، فضلاً عن نفسية الجيتو وما ولدت من نزعة للشك والكراهية لدي الشعب اليهودي نحو الآخرين. كل هذه العوامل جعلت من مراكز القوى في اسرائيل مراكز من نوع خاص، تنعكس عليها أمراض الشعب اليهودي والعقيدة الصهيونية. وهو أمر لم يوضحه الكتاب توضيحاً كافياً، وسط حماسه لرصد ظاهرة مراكز القوى، وتوفيقه إلى حد كبير في توضيح معالمها وأبعادها بوجه عام.

ماركوس ونهاية ديكتاتور

الديكتاتور هو الحاكم المستبد.. ولدينا في فرديناند ماركوس حاكم الفلبين مثال صادق ومعبر تنطبق عليه كل صفات الديكتاتورية والاستبداد، نسوقه هنا مثلا لطاغية غاشم من العالم الثالث: شخصية وممارسة سلطوية، والى اين تقود هذه الممارسة...

أول ما تميزت به شخصية هذا الديكتاتور انه بالرغم من ضعفه الجسدي حيث يبلغ من العمر ٦٨ عاما، الا انه ظل الى اخر لحظة من حكمه يمارس سلطته باستبداد كامل... يرى الامور من زاوية واحدة، يجمع بين يديه كل مقاليد السلطة، والسلطة في شرعته لا تنبع من الشعب، وكما هو مفروض، بل تنبع منه ومن بعض القوى النافذة، المحسوبة عليه، كجنرالات الجيش او بعض المنتفعين من النخبة المحلية والاقطاع السياسي والاقتصادي... هذا الديكتاتور الذي كثيرا ما يصاب بالاغماء اثناء حديثه مع احد زائريه، فيمدد على سريره ليأخذ غفوة يفيق بعدها ليستأنف حديثه من جديد! ظل يعيش الى اخر لحظة في حكمه في عزلة دائمة.. أو حالة حصار دائمة! مقفلة دونه الجدران والابواب... ولا يستطيع ان يتحرك، او حتى يتنفس الا ضمن مراقبة شديدة...

ولقد كان اثناء فترة حكمه، يمارس السلطة الى ما لا نهاية، وبشكل قمعي، وسجونه مليئة بالمعتقلين الذي بلغ عددهم حسب اخر الاحصائيات ٦٠,٠٠٠، ولقد اشارت اصابع الاتهام، اليه بقوة، في اغتيال زعيم المعارضة الفلبينية المحبوب اكينو... وقد كان يريد - لو استطاع - ان يستمر في ممارسة هذه السلطة بهذه الطريقة القمعية الى الابد، وهو الذي كثيرا ما هدد انه اذا اضطر الى التخلي عن السلطة فانه سيحول الفلبين الى مذبحة كمذبحة كمبوديا... وكان لسان حاله يقول: ليكن من بعدي الطوفان!!

وقد اعتاد الديكتاتور ان يبتز ويحتكر.. شأن كل طاغية متسلط جبار! من لدن هامان وقارون وفرعون. الى سوموزا ودوفالييه وبنوشي... فهو يأكل قطعة الجبنة لوحدة. ولا احد يحاسبه على المعونات التي يتلقاها من الاميركان والتي تقدر بـ ٢٠٠ مليون دولار، وقد ذكر احد التقارير عن الوضع في الفلبين: «ان ماركوس مستمر في أكل الجزرة ولا يستطيع احد ان يضربه بالعصا» وحتى تتم له عملية الابتزاز والاحتكار، فقد اطلق عددا من المحاسيب والشركاء يتحكمون في الثروة القومية، وسيطر هؤلاء على كثير من فاعليات البلاد الاقتصادية في الوقت الذي يشكو فيه الشعب مر الشكوى من

الجوع والحرمان. ولقد قال المطران انطونيو فورتش قبل ايام محدودة من رحيل ماركوس: «ان بركانا اجتماعيا على وشك ان ينفجر!». والارقام التالية تتحدث عن نفسها في وصف الوضع المالي والاقتصادي في الفلبين في عهد الديكتاتور: يملك ماركوس وزوجته ٣ بلايين دولار على الاقل، ويقدر البعض ثروتهما بـ ٨ مليارات دولار، تستثمر في اكثر من جهة ومجال... وبالمقابل فقد بلغت ديون الفلبين في عهد ماركوس ٢٦ مليار دولار...

والديكتاتور، الى ذلك، يحارب الديمقراطية، فهو الرئيس الدائم، والحاكم الفرد... والذي - لو ترك لنفسه - لن تحدثه نفسه ان ينزل عن ظهر الشعب الفلبيني الذي طالما ضاق به ذرعا... ومن هنا فقد اضطر الشعب الى حمل السلاح، وشكلت المعارضة فيه ما يسمى بجيش الشعب الجديد، فضلا عن حركة مورو الاسلامية، وقد كانت هناك حرب عصابات ضد قوات ماركوس في ٦٠ ولاية من بين ٧٣. ومع هذا فان الديكتاتور ظل يهدد بأنه لن يسمح بالحكم الديمقراطي بأي حال من الاحوال، وأمام الاقتراح بحرية الانتخاب ونظام الحزبين، وضع الديكتاتور الجيش مقابل الشعب، فالجيش هو الكفيل بالقضاء على «اليسار» في نظره... وهو بهذا يجدف في تفسير المعارضة فينسبها الى اليسار، بينما هي في حقيقتها رد فعل طبيعي لطغيانه وظلمه وتسلطه وابتزازه...

وللمرأة، وفتش عن المرأة! كما يقول المثل الفرنسي، دورها في نظام ماركوس، فقد كانت زوجته، ملكة الجمال السابقة، ايمالدا ماركوس، احدى أعمدة الحكم بل احدى المستفيدات الرئيسيات من النظام، واستفادة مادية بالدرجة الاولى! وهي عرابة ماركوس في اقامة شبكة من العلاقات المادية المصلحية، واختيار المحاسيب والطفيليات، التي تتغذى على دماء الشعب الفلبيني، وربط مصير هؤلاء المنتفعين بالنظام السلطوي القائم، وقد استمرت في مؤامراتها، الى اخر لحظة، بالرغم من نقد النقاد الذين يعتبرونها أسوأ اختيار لماركوس...

يظل ان نتحدث عن العلاقات الخارجية، او الوجه الاخر، لهذا الديكتاتور وامثاله في كل جهات العالم.

ان مثل هذا الطاغية لا يمكن ان يقف على قدميه بدون مساندة خارجية، بل ان مثل هذا الوضع المقلوب للاشياء لابد له من راع يرعاه لانه ضد طبيعة الاشياء، فمن يا ترى يحمي هذا الطاغية؟؟ وكان يحميه..هنا يأتي دور الاميركان! ان المقابل الموضوعي لمثل

هذا الطغيان، ورديفه وعديله في الميزان هو الاستعمار والامبريالية بكل ما يجلبان معهما من شرور ومآس وويلات، وما يتركان من ذيول ونتائج وعواقب وبيلة. والديكتاتور الفلبيني له قصة مع الامريكان هذه بعض لمحاتها:

– في البداية او قل منذ عشرين عاما تقريبا، كانت المراهنة الاميركية على فرديناند ماركوس كحليف مثالي... وجرى تلميع الشخصية، وجرى اطلاق يديها لتمارس طغيانها بالشكل الذي أشرنا اليه. ولقد كان بوش نائب رئيس الولايات المتحدة، وهو الذي يعلم عن طغيان ماركوس ما يعلم، هو الذي قال في زيارة له لمانيلا، مخاطبا ماركوس: «اننا نقف معك يا سيدي، اننا نحب تمسكك بالمبادىء الديمقراطية والتجربة الديمقراطية» كذا!

والحق ان ماركوس كان الى وقت قريب يشكل بالنسبة للاستراتيجية الاميركية ركنا اساسيا في استراتيجيتها في جنوب شرق اسيا وبحر جنوب الصين والمحيط الهادي. وهو البديل الاميركي في هذه المنطقة من العالم، يكفي ان عدد جزر بلاده يبلغ ٧٠٠٠ جزيرة.

– على انه عندما تورط الديكتاتور، وولغ في دم الشعب الفلبيني، قتلا واعتقالا واغتيالا، واحتكارا واتبزازا وظلما وعدوانا، وبدأت الارض تميد من تحت قدميه، شعر الاميركان بالخطر، واصبح مصير عميلهم على كف القدر. وهنا حاولت اميركا حل المشكلة ضمن المعطيات التالية:

★ دعوة ماركوس الى ممارسة نوع من الديمقراطية تقوم على اصلاحات انتخابية على ان لا يترشح هو ولا زوجته لمنصب الرئاسة. ولكن الديكتاتور رفض الانصياع لهذا التوجه.

★ حتى اذا ازدادت الاوضاع سوءا كان هنالك اقتراح اخر بترحيل ماركوس عن بلاده قبل الطوفان! على ان يهاجر الى أميركا ويعيش هناك بقية أيامه تحت حماية اميركا... وأن يأخذ معه زوجته وأموالهما!

★ والخيار الثالث هو تركه يلقى مصيره المحتوم، ومن خلال التطور الحتمي.. وهنا ربما كان مصيره مثل مصير دييم طاغية جنوب فيتنام الذي تمت تصفيته على يد حركة التحرير الفيتنامية... وهنا فهو لن يذهب لوحده بل تذهب معه مصالح الولايات المتحدة.

هذه الخيارات لم يطبق منها واحد لوحده، او لعلها - بكيفية ما - قد طبقت مجتمعة. فقد دخل ماركوس انتخابات الرئاسة... وانتهت هذه الانتخابات التي وصفت بالانتخابات الفضيحة الى فوز الديكتاتور! وحيث اثبتت هذه الانتخابات كما قال احد التقارير ان ماركوس هو عدو نفسه الاول... فهي لم تزد أن عجلت بنهايته!! اذ ان اميركا شعرت بأنه اذا استمر ماركوس في حكمه فان المستفيد الاول من حكمه لن يكون سوى الشيوعيين، وهذا يزيد استفحال الامور وسيرها من سيء الى أسوأ، وفضلا عن هذا فان وجود ماركوس على رأس الحكم سيكون مدعاة لغضب المعتدلين الفلبينيين والذين يشكلون نسبة عظمى من الشعب الفلبيني، وميلهم نحو التطرف والراديكالية... وعلى هذا فان الولايات المتحدة لم تمد يد الانقاذ الى ماركوس... بل لعلها وراء سيناريو انهياره واضمحلاله! ومن ثم جعلته يذهب الى مصيره، والى حيث خططت من قبل... فلأن تضحي بالديكتاتور فرديناند ماركوس، أفضل في النهاية، من ان تضحي بالفلبين تماما... وهكذا نجح الحل الوسط تقريبا، الا وهو جعل المعارضة الفلبينية المعتدلة تقود شعبها وانقاذه من الويلات التي تسبب فيها حكم الطاغية...

وهكذا اذن تكون نهاية الديكتاتور المستبد... فلا بد لتراكم السلبيات ان تجرف حكمه... ولو طال الزمن، وحتمية التاريخ في هذه الناحية لا ترحم! وكما يقال دولة الظلم ساعة... ولكن دولة الحق الى قيام الساعة!!

الطريق الى مؤتمر جنيف★

مؤلف هذا الكتاب، وهو الاستاذ أحمد الشقيري، ليس بحاجة كبيرة للتعريف. ولكنه يجدر بنا أن نذكر هنا أمرا له علاقة بكتابه، الذي نعرض له في هذه الدراسة: ذلك ان الشقيري من الكتاب القلائل، في وطننا العربي، الذين يمتازون بتجربة سياسية عريضة. ويعبرون في كتابتهم عن معاناة حقيقية وأصيلة. فقد عاصر الشقيري العمل السياسي في فلسطين، منذ وقت مبكر، يعود الى أواخر العشرينات، واستمر على ذلك حتى وقتنا الراهن. وفي كل الأعمال والمناصب التي تقلب فيها، كانت القضية الفلسطينية، باعتبارها قضية العرب الأولى، تسيطر على بؤرة شعوره، وتحتل من اهتماماته المكان الاسمى. وأكثر التجارب التي هي ذات صلة مباشرة وحميمة بمؤلف الشقيري، الذي هو قيد معالجتنا هنا، هي تجربته في اروقة الأمم المتحدة ومنابرها، والتي سلخ الشقيري فيها ردحا غير قصير من الزمن، ودافع فيها بحماس واخلاص ووعي، عن أمهات القضايا العربية، مثل القضية الجزائرية فضلا عن القضية الفلسطينية.

ينطلق الشقيري في كتابه «الطريق الى مؤتمر جنيف» من مقولة أساسية مؤداها أن مؤتمر جنيف - كمؤتمر - ليس هو الحل! ويسترجع الشقيري، من أجل اثبات وجهة نظره هذه، الهزائم التي لحقت بالقضية الفلسطينية، في أهم مؤتمرات السلطة الدولية الأعظم، الأمم المتحدة ومجلس الأمن. ويعتبر الشقيري ان عقدة الضعف القاتلة في هذه المؤتمرات، هي أنها لا تعالج القضايا المصيرية للشعوب، من موقع العدالة والانصاف والحق المطلق في تقرير المصير، بمقدار ما تعالجها من منطق المساومة. ومن هنا فهي لا تتعامل مع هذه القضايا، فتحسمها في العلن والجهر، بمقدار ما تتعامل بها في الكواليس والدهاليز. وعلى هذا فهو يشكك فيما يصدر عن هذه المؤتمرات من تعبيرات ظاهرها البراءة وباطنها غير ذلك. مثل المفاوضات والصلح والمعاهدات، ويرى أن هذه التعبيرات المتداولة وما يرافقها عادة من ممارسات، تخفي تحتها التآمر على حقوق الشعوب، كما يكمن وراءها أيضا ضياع الأوطان، ويسوق الشقيري، وهو ابن فلسطين، - الوطن الفلسطيني - كمثل بارز على هذا الضياع. ويقول «ان حوزة الأوطان ليست موضع

★ الكتاب من تأليف الأستاذ أحمد الشقيري.

الخلاف» (الكتاب ص ٢٠٢)، كما يقول «وحاشا لله ان يكون الوطن محل مساومة» (الكتاب ص ٢١١).

ومن أجل أن يدلل الشقيري على مصداقية أطروحته في ضياع حقوق الشعوب الضعيفة على اعتاب السياسة الدولية يذهب الى أن هذه السياسة تحكمها معادلة قاسية، اهم اطرافها هما العملاقان الدوليان: الاتحاد السوفيتي، والولايات المتحدة اللذين تحركهما مصالحها قبل اي اعتبار آخر. وفي سبيل توكيد هذه الأطروحة، يعود بنا الشقيري الى حرب حزيران عام ١٩٦٧، التي يعتبرها أعظم هزيمة في تاريخ العرب منذ الحروب الصليبية. فهو يعتبر هذه الحرب، وما تلاها من مؤتمرات، مقدمة أفضت الى ما تعانيه القضية الفلسطينية الآن في سوق السياسة الدولية. ويتطرق الشقيري هنا الى مؤتمر جنيف (١٩٧٧) الذي هو المحور الأساسي للكتاب فيقول «وستمر الأيام والشهور والأعوام، ويأتي بعدها مؤتمر السلام في جنيف في ربيع ١٩٧٧ تحت رياسة الدولتين العظميين، أما حجر الاساس فقد وضع في نيويورك قبل عشر سنوات على يد الرئيسين العملاقين، جونسون وكوسيجين، والويل كل الويل لمن يرميه القدر بين عملاقين رحيمين حبيبين!» (الكتاب ص ٤٥) ويضيف الشقيري الى ذلك قوله أن حرب ١٩٦٧ هي التي جعلت «الوطن الفلسطيني في صميم هذه الصفقة» بين هذين العملاقين. ويبين الشقيري بمتابعة دقيقة يعود فيها إلى أرشيف الأمم المتحدة ومجلس الأمن، دور هذين المنبرين في القضية العربية، ساعة فساعة ويوما فيوما. فهو يتحدث عن قرار وقف اطلاق النار الذي لم يسمح بالعودة الى خطوط ما قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧. كما يتحدث عن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ والذي يعده هزيمة سياسية منكرة ويقارنه بوعد بلفور، على الرغم من أن أجهزة الاعلام – التي يصفها الكاتب بأنها محتلة من الحكام العرب – اعتبرته نصرا مبنيا. «وبعد صدور هذين القرارين انطلق الحكم العربي المعاصر يعلن للجماهير العربية عن طريق أجهزته الرسمية، ان مجلس الأمن قد قرر «الجلاء الكامل من غير شروط ولا قيود، واستعادة الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني، مع أن القرار لا ينص على أحد من هذين الأمرين. الى جانب ذلك حملة اعلامية ضخمة في تمجيد قرار مجلس الأمن حتى أصبح تنفيذه مطلبا قوميا رفيعا، تماما كمطالبنا الوطنية السابقة في الاستقلال التام أو الموت الزؤام» (الكتاب ص ١٩).

وتأييدا لوجهة نظر الكاتب في أن الخلل في مثل هذه القرارات الصادرة عن مجلس الأمن والأمم المتحدة، انما هو على مستوى القمة، ومن أجل أن لا يفرق ايضا بين دور

الاتحاد السوفيتي الصديق الظاهر للعرب، فيجد أن موقفه متخاذل في تبني القضية الفلسطينية، ويعزو ذلك الى سياسة الوفاق الدولي التي تتعامل مع القضايا المختلفة حسب أولويات معينة. فهو عندما يتحدث عن الدورة الطارئة التي تلت حرب أكتوبر ١٩٧٣ يقول: «واضح من تصريحات الرئيسين ان الدورة الطارئة قد طرأت عليها أمور أهم وأعظم من الشرق الأوسط وحاضره ومستقبله والويل لمن يكون على جدول العملاقين... انه يفقد القدرة على تقرير المصير بل رؤية المصير»(الكتاب ص ٤٤). ويركز الشقيري على موقفين بارزين من مواقف هذا الوفاق الدولي: اتفاق غلاسبورو (١٩٦٧) الذي جاء بعد حرب ١٩٦٧، واتفاق كوسيجين كيسنجر الذي عقد بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣.

ونحن لا ندري الى أي مدى نستطيع اعتبار موقف الشقيري من الالقاء باللائمة على الاتحاد السوفيتي في تفريطه بالقضية الفلسطينية - وبخاصة في المنبر الدولي - مبررا، وبالذات اذا قسنا هذا الموقف بموقف الولايات المتحدة، في هذا المنبر، ولكن موقف الشقيري يحتمل الكثير من التبرير، اذا تذكرنا ان الولايات المتحدة وهي زعيمة العالم الغربي - العالم الامبريالي - ملتزمة التزاما كاملا باسرائيل، بينما الاتحاد السوفيتي، وهو المفترض فيه انه العدو لهذا العالم الامبريالي والصديق للشعوب المستضعفة في العالم الثالث، لا يلتزم بنفس الصورة بهذه الشعوب. وعلى أية حال فان الشقيري لا يحاول ان يحاسب الموقف العربي على موقفه من الاتحاد السوفيتي والتزامه به - كما هو موقف اسرائيل من الولايات المتحدة مثلا - ولا أدري لماذا يتجاهل الشقيري هذه الناحية، وهو استاذ ماهر في السياسة، نظرية وممارسة، ويدرك انه لا توجد في قاموس السياسة الدولية صداقة دائمة بل مصالح دائمة. كما انه ينبغي على العرب، أن يساعدوا انفسهم أولا، إذا ارادوا للآخرين ان يساعدوهم بنفس الدرجة. هذا إذا لم نقل مع البعض، أن أقدس الأيديولوجيات، تخفي في طياتها مصالح الدول التي وضعتها، ولا يمكن ان تتعارض هذه الايديولوجيه، مع المصالح الحيوية لهذه البلاد.

وهذا سيجعلنا ندخل في الجانب الآخر من القضية التي يثيرها الشقيري، والمتعلقة بالدور العربي السياسي والعسكري. ومجمل القول هنا أن الشقيري يعتبر الجهد السياسي العربي بعد حرب حزيران ١٩٦٧ على صعيد الأمم المتحدة، وخارجها (مؤتمر الخرطوم)، جهدا فاشلا، ويطلق عليه باسلوبه البلاغي الخطابي المعروف، «هزيمة عسكرية فادحة في الوطن العربي وهزيمة سياسية فاضحة في المنظمة العالمية» (الكتاب ص ٥). ومع ذلك فان

الشقيري يعتبر هذه النتائج السياسية محكومة بالهزيمة العسكرية التي املتها.

لكن الشقيري، من ناحية أخرى، يرفض رفضا باتا النتائج السياسية التي ترتبت على حرب اكتوبر ١٩٧٣، ولعل هذه النتائج الأخيرة هي التي أملت عليه كتابة مؤلفه هذا. والروحية المقلوبة لحرب اكتوبر من هزيمة نفسية غير مبررة، على الصعيد العربي، والتي عاش الكاتب مظاهرها ووقائعها حتى الاعماق، كان لها دور حاسم في مناقشاته التي يسوقها فيه. وعلى هذا فهو يعتبر مؤتمر جنيف قمة الهزيمة السياسية وتتويجا بائسا لها.

وهنا يتحدث الشقيري في فصل ممتاز من فصول كتابه عن حرب اكتوبر، ويستشهد على نتائجها بالنسبة للعرب والاسرائيليين، بمقتبسات من كتاب وسياسيين اسرائيليين وأجانب مثل زئيف شيف وجولدا مائير وبارليف والجنرال بوفر، والذين تتواتر تقاريرهم وكتاباتهم لتؤكد وصفها هذه الحرب بانها زلزال واعصار وكابوس وصدمة للاسرائيليين. فهو يورد مثلا قول جولدا مائير في مذكراتها «لا أجد موضوعا أصعب علي من الكتابة عن حرب اكتوبر، ولا اعالجها من نواحيها العسكرية، ولكن باعتبارها كارثة حديثة، وكابوسا عانيته بنفسي، وسيظل هذا الكابوس دائما معي، في ٧ أكتوبر جاءني دايان ليقول الجبهة الشمالية - السورية - حالتها سيئة ويجب الانسحاب واقامة خط دفاعي واستمعت اليه برعب» (الكتاب ص ١٦١) كما يستشهد بقول جريدة يديعوت أحرونوت حين وصفت حياة الاسرائيليين أثناء حرب اكتوبر بقولها «اننا نحس كما لو كنا نعيش بعد زلزال أصاب بلادنا»(الكتاب ص ١٥٩).

الا ان الشقيري بعد تمجيده الصادق والمحق لحرب أكتوبر كصفحة مشرقة في تاريخ الحروب العربية وأثرها الرهيب على المواطن الاسرائيلي، ينثني الى القول ان السياسة العربية لم تكن في مستوى الناحية العسكرية. فهو يتساءل «هل كانت تلك المسيرة السياسية شامخة حقا، وعلى مستوى توأمها الشقيق المسيرة العسكرية؟» (الكتاب ص ١٦٣). بل انه يلوم بقسوة الحكم العربي المعاصر على هذه الفرصة التي ضاعت! «أجل ان الحكم العربي المعاصر قد أهدر ذلك «النجاح العظيم» وقد أضاع التأثير السيكولوجي الهائل..فقد اختط سياسة دون مستوى «الحرب» وراح يلهث وراء تسوية سلمية بددت الانجازات العسكرية». ويستشهد الشقيري بقول الجنرال بوفر الذي اعتبر «التسوية السياسية وسيلة لنسف التضامن العربي والذي عبر عن مخاوفه من ان توافق اسرائيل على التوصل الى تسوية باعتبار انها افضل وسيلة لبث الفرقة بين العرب» (توكيد المراجع). وهنا يعلق الشقيري الذي الف كتابه هذا ليدين منطق التسويات من على منابر ودهاليز

المؤتمرات بقول مرير «ويا لك قطة اكلت بنيها!».

ويتساءل الشقيري بمرارة ودهشة لماذا خطب الرئيس السادات يوم ١٦ اكتوبر ١٩٧٣ والمعركة لا تزال محتدمة والجندي العربي يسجل صفحات مذهلة من البطولة، قائلا (أي السادات) «اننا لم نحارب لكي نعتدي على أرض غيرنا!! وانما حاربنا ونحارب وسوف نواصل الحرب لاستعادة اراضينا المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ولا يجاد السبيل لاستعادة الحقوق المشروعة لشعب فلسطين واحترامها» (الكتاب ص ١٦٩). والذي يثير حيرة الشقيري أيضا أن هذا الخطاب انما جاء بعد خطاب الرئيس الاسد، والذي قال فيه «ان المعركة اصبحت معركة تحرير كاملة.. وستكون خاتمتها تحرير الارض، وان القوات العربية قد طردت العدو من مواقع كثيرة من الجولان»(الكتاب ص ١٦٩).

ويتساءل الشقيري، وما أكثر الأسئلة التي يطرحها، ولا يجد عليها إجابة، شأنه شأن كل مواطن عربي! يتساءل لماذا قبل العرب بوقف اطلاق النار، واضافوا مأساة جديدة الى مأساة قرار ٢٤٢ - الذي لم يحقق شيئا فعليا على أرض الواقع - قرار ٣٣٨. ولعل المعضلة تتفاقم لدى الشقيري وغيره من العرب، عندما يشاهدون اليوم ما استتبع حرب اكتوبر من مبادرات للرئيس السادات، وعقد للصلح بين مصر واسرائيل ليس هذا فقط بل ان الشقيري يتحدث عن مدرسة جديدة في السياسة العربية تتنكر لكل المعطيات السابقة في العلاقة بين العرب والعدو الاسرائيلي. «وما كادت حرب أكتوبر أن تنتهي، حتى رأى المواطن العربي نفسه، أمام عهد جديد، يتسم بالتراجع القومي، عهد له «مدرسة» سياسة جديدة، وله دعوة «وطنية» جديدة تقوم على «مبادىء وأسس» جديدة تعلن ان الموقف العربي عبر الخمسين عاما الماضية، هو خطأ فادح، وغوغائية فاضحة، وآن الأوان للعقل ان يسود على الجهل، وحان للموضوعية والعلمية والعقلانية، أن تلجم النزعات العاطفية والارتجال»(الكتاب ص ١٨٠).

ناقش الشقيري اطروحته في كساح السياسة العربية المحكومة عند القمة بالوفاق الدولي، فلا مفر ولا محيص - مناقشة لا تخلو من الكثير من المنطق والسداد. الا ان المدقق في هذا الكتاب لا يجد الدراسة العلمية والتفسيرات الحقيقية لهذا الكساح المزمن في السياسة العربية، مع أن طبيعة الموضوع الذي يعالجه الشقيري تؤهله تأهيلا ممتازا لهذه الدراسة والتفسيرات. لا سيما وهو يعرض لظاهرة كبيرة وقضية مصيرية من قضايا الأمة العربية. وتتوفر لديه معطيات غنية عنها، يستطيع ان يخلص منها الى نتائج كلية في تقييم

السياسة العربية ومواقفها المتخاذلة. ولكن المؤلف لم يفعل. فقد أهمل قضايا رئيسية ومحورية في صميم دراسته فهو لم يعالج معالجة موضوعية موضوعات مثل الرفض العربي الذي ينعت ظلما بالتعنت والعصبية والجهل والسطحية مع العلم انه ينبع من عدم القبول باغتصاب وطن كامل واقتلاع شعب بحاله منه. هذا الرفض الذي هو وسيلة الخلاص الوحيدة أمام تسويف وخداع وأحابيل السياسة الدولية التي تريد من العرب الاعتراف باسرائيل المغتصبة لهذا الوطن والمدمرة لمستقبل شعب فلسطين من الناحية السياسية. كما انه لم يتعرض لغياب الاستراتيجية العربية الواحدة التي تساهم في اضعاف سلاح الرفض كما أنها تخنق فرصة المجابهة الحقيقية مع اسرائيل سواء في حرب نظامية أو حرب شعبية.. ولا يعالج المؤلف موقف الانظمة العربية التي تغلب المصالح الشخصية والمحلية على المصلحة القومية كما انها لا تعتبر - بصورة حقيقية - اسرائيل التناقض الرئيسي والعدو الأول للأمة العربية. وعلاوة على كل هذا فهو لا يتطرق لأزمة التطور الحضاري لامتنا العربية وكيف ان لأمراض التخلف مثل سيادة الطبقية وتفشي الأمية وغياب الحرية السياسية والممارسات الديمقراطية دورا رئيسيا في شل الجهد العربي. وهو على وجه الاجمال لا يبلور هذه القضايا حتى يدل القارىء على ان محصلتها جميعا هي التي تجعل المجابهة العسكرية والسياسية للعدو محكوما عليها بالفشل. وهكذا يبقى المواطن العربي، سيزيف القرن العشرين، كلما وصل الى القمة أو كاد انحدر الى السفح، ليعود الى المحاولة للصعود للقمة من جديد، ثم ينحدر من جديد وهكذا!

حقا ان الشقيري تعرض لهذه الجوانب، ولكنه كان يمسها برفق كما يمسها الدبلوماسي أو السياسي (رغم أنه لم تكن تنقصه الصراحة أحيانا) أكثر مما يعالجها معالجة موضوعية متكاملة فيقول الحقيقة العلمية كلها. ومن هنا فاننا نجد انه يلجأ مرات كثيرة الى الرمز أو الى التلميح بدلا من التصريح، والكتابة بين السطور أكثر مما في السطور! والأكثر من ذلك ان الشقيري افتقد النسق العلمي والأسلوب المنهجي في تناول الموضوعات المحورية التي ذكرناها اعلاه. فأوردها على شكل شذرات متناثرة هنا وهناك، واكتفى أحيانا كثيرة بسرد الأحداث مع التعقيبات الحماسية التي تشوبها المرارة اكثر من ترتيبها ترتيبا موضوعيا وعلى شكل دراسة متكاملة. ولعل افتقاد المؤلف لتصور نظري كامل او قاعدة نظرية معينة لتفسير الاحداث المختلفة وانطلاقه من اكثر من تصور او منطلق نظري للتفسير هو الذي جعل موضوعاته تفتقد الى الكثير من العضوية او التكامل العضوي في النظرة، ان لم نقل انها تفتقد الاصالة ومع ذلك فاننا ينبغي ان نذكر ان

الشقيري وفق كثيرا في وضع مؤتمر جنيف في منظوره التاريخي والسياسي الصحيح، كما كان قارئا ذكيا لتاريخ هذه المرحلة، فنظرته اللماحة، وابرته الدقيقة، تمكننا من ادراك المؤشرات الرئيسية والاساسية لتطور السياسة العربية في عقد من الزمان لعله من اكثر عقود التاريخ العربي تأثيرا مصيريا على الامة العربية.

الاعلام الامريكي

قامت محطة الـ NBC الاميركية ببث حلقة من برنامجها التسجيلي الاخباري بعنوان «ستة ايام زائد عشرين سنة: الحلم يموت» وقد عرضت فيه قيام اسرائيل باحتلال الضفة وغزة.. وعكست وجهة نظر تعارض هذا الاحتلال وتصور واقع الفلسطينيين في الارض المحتلة، بما فيه من بناء للمستوطنات.. وتهجير للفلسطينيين.. وما يحملان من معان سياسية.

وكالعادة، قاومت الدوائر الصهيونية البرنامج ووصفته بانه «تجربة مذهلة في الريبورتاج التلفزيوني المتحيز». ومع العلم ان مدير المحطة التلفزيونية دافع عن المصادر التي تلقى منها المعلومات الواردة في البرنامج كانت اسرائيلية، لكن هذا لم يمنع الحكومة الاسرائيلية من التصرف باعلانها الـ NBC محطة ممنوعا عليها مقابلة المسؤولين الاسرائيليين.

هذا الخبر سيجعلنا نقف موقفا تقويميا من الاعلام الاميركي، ومن اجل هذا سنلجأ الى دراستين علميتين لا ينقصهما الموضوعية كما لا ينقصهما التحري الدقيق والتوثيق.. الدراسة الاولى بعنوان «التغطية التلفزيونية للشرق الاوسط» وهي باللغة الانجليزية، ومؤلفها مع اخرين العالم الاميركي وليم ادامز، وقد تناولت هذه الدراسة بالبحث والتحليل ما تم عرضه عن الشرق الاوسط في التلفزيون الاميركي من خلال ثلاث محطات كبرى هي: NBC و CBS و ABC، وقد صدرت في كتاب عام ١٩٨٢، بحيث غطى فترة السبعينات بما تميزت فيه من زخم اعلامي كبير.. جعل التلفزيون الاميركي يولي الشرق الاوسط عناية كبيرة.. وقد بدأ هذا الانفجار الاعلامي التلفزيوني بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣، وما تلاها من قطع النفط العربي ومن محادثات فك الارتباط، ومن ثم الحرب الاهلية اللبنانية ١٩٧٦، فزيارة السادات الى القدس ١٩٧٧، فمحادثات كامب ديفيد ١٩٧٩، فعزل شاه ايران، وقضية الرهائن الاميركان التي استمرت ٤٤٤ يوما.

تميزت التغطية التلفزيونية الاميركية للشرق الاوسط في هذه الحقبة الزمنية بالموقف الودي النسبي من قضايا المنطقة.. وبالمقابل الموقف النقدي او الناقد للموقف الاسرائيلي.. وقد ساهم - كما تذهب الدراسة - في صناعة هذا الموقف العرب انفسهم

بموقفهم الصلب في حرب اكتوبر بصورة خاصة.. وما طرحه السادات من اراء وتوجهات سياسية وفكرية عن القضية العربية بصورة عامة.. والقضية الفلسطينية بصورة خاصة.. كما ساهم الفلسطينيون انفسهم وزيارة ابي عمار للامم المتحدة.. وما طرح هنالك من مقولات تدعو للسلام - من خلال المقاومة - جرى هذا بحيث اصبحت النظرة الى القضية الفلسطينية نظرة اقرب الى الموضوعية النسبية.. والانصاف.. من قبل الرأي العام الاميركي.. وبشكل لم تشهده من قبل في اي يوم من الايام..

على انه بالرغم من هذا التحول في الموقف الاميركي في التوجه نحو القضية العربية في المعالجة او التغطية التلفزيونية، فان هذا الموقف ظلت تحكمه ثوابت او رواسب تميزت بالمظاهر التالية:

★ الالتزام الادبي والاخلاقي نحو اسرائيل لدى قطاع كبير من العاملين في القطاع الاعلامي بعامة والتلفزيوني بخاصة. فبالرغم من ان اليهود لا يشكلون سوى ٣ بالمائة من مجمل عدد السكان في الولايات المتحدة، لكن ربع العاملين في الصحافة في واشنطن هم من اليهود، كما ان ٥٨ بالمائة من الفنيين العاملين في الشبكة التلفزيونية هناك والمحررين فيها، هم ايضا من اليهود وشعار هؤلاء كما يذهب استفتاء قامت به الدراسة هو: ان لدى الولايات المتحدة التزاما أدبيا واخلاقيا الا هو منع تدمير اسرائيل «هكذا».

كما تضيف الدراسة ان الجهتين الصحافة والاذاعة في هذه المنطقة الحساسة من الولايات المتحدة مؤيدتان بقوة لاسرائيل.

وتذهب الدراسة كذلك الى ان النخبة الاعلامية تؤيد اسرائيل اكثر مما يفعل الرأي العام بصورة مجملة.

هكذا تذهب الدراسة في مجمل استنتاجها، مع العلم ان بعض الدارسين في هذه الدراسة، يحاول القول ان التوجه نحو اسرائيل والمتعاطف الكبير مع موقفها، والتأييد القوي لها من قبل النخب الاعلامية ليس له دخل في توجه التغطية التلفزيونية نفسها، وان هؤلاء الاعلاميين يتميزون بدرجة عالية من الموضوعية والمصداقية التي تنأى بهم عن الانحياز!

★ الالتزام بالمساهمة في بناء اسرائيل باعتبارها الحليف والشريك والامتداد الحضاري الديمقراطي في المنطقة... ولذلك فان هنالك التزاما مشابها للالتزام الاول بالمحافظة

على بقاء اسرائيل وديمومتها وعلى هذا فبالرغم من كل التقلبات فان شعبية اسرائيل وتأييدها في الاوساط الاعلامية تظل نغما ثابتا ومستمرا... وعاليا...

★ ومن هنا فان الاميركيين - لا يزالون في اعماقهم - ينطلقون من منطلق معين تبرزه الدراسة في احد فصولها ومؤداه ان الاميركيين يعتقدون ان الاسلام دين غير متسامح «هكذا» وان العرب بدو متعصبون ضد المسيحية، وانهم اناس ظرفيون، خارجون لتوهم من ليالي الف ليلة وليلة!

موجز القول اذن بالنسبة لهذه الدراسة انه بالرغم من التحول النسبي في الموقف الاعلامي التلفزيوني الاميركي لصالح العرب في عقد السبعينات الا انه ظل محكوما بالثوابت الاصيلة في التوجه والرأي العام الاميركي. هذا التوجه والرأي العام الذي عمل الصهاينة واصدقاؤهم كما عملت فلسفة الرأي العام الاميركي الذاتية وعقائده الخاصة وعوامل اخرى على صناعته... وليس عبثا قول حاييم هرتزوغ رئيس الدولة الصهيونية «ان ميدان المعركة الرئيسي الان، هو مسرح الرأي في الولايات المتحدة»، ومثله قول مناحيم بيجن: «في زمننا، عليك ان لا تتحدث فقط الى الحكومات بل الى الرأي العام» غاية الامر اذن ان موقف NBC الاخير والذي هو شهادة حق وصدق... ليس فيه ابتعاد او خروج كبير عن التوجه الاصيل في الرأي العام الاميركي استنتاجا مما تذهب اليه دراسة وليام ادامز.. وتحولها الكبير نحو العرب في السبعينات.. تحولا لم ينسها جذورها ومن طلقاتها الاساسية.

ادوارد سعيد عن الاعلام الاميركي:

والدراسة الثانية التي سنلجأ اليها لدراسة التوجهات الاصيلة للاعلام الاميركي هي دراسة الاستاذ ادوارد سعيد، البروفسور في جامعة كولومبيا في نيويورك والكاتب المعروف.. هذه الدراسة التي نشرت مؤخرا في مجلة دراسات فلسطينية التي تصدر باللغة الانجليزية عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية التي يشرف عليها الدكتور وليد خالدي.. العالم الفلسطيني المعروف والاستاذ بجامعة هارفارد، وادوارد سعيد وهو يعالج عالم الثمانينات في الاعلام الاميركي يذهب الى ما يلي:

★ ان هنالك تركيزا كبيرا على الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية في الاعلام الاميركي، فهو يأتي في الاهمية، بعد موضوعي روسيا وكوبا.

★ ان الصورة السائدة عن العرب في الولايات المتحدة، انهم ارهابيون ولا ساميون، وان

هذه الصورة يساهم في صناعتها المستشرقون ودعاة الصهيونية.. وان هنالك شخصيات اميركية كبيرة تقف مع الصهيونية واسرائيل موقف التأييد المطلق بلا سؤال ولا نقاش! وعلى رأس هؤلاء الرئيس رونالد ريغان نفسه ووزير خارجيته جورج شولتز. اكثر من هذا فان الاعلام الاميركي الموجه يلعب دورا كبيرا في تحول القضية الفلسطينية من قضية سياسية الى قضية ارهاب، وان الفلسطينيين في رأي بعض دعاة هذا الاعلام ليسوا سوى وحوش تمشي على قدمين! او انهم كما وصفهم ايتان قائد جريمة العدوان على لبنان ١٩٨٢، ليسوا سوى صراصير مخدرة في زجاجة!

★ وان جزءا كبيرا من هذا الاعلام الحاقد، المزيف عن عمد للحقائق، حتى انه ليحاول قصر الرأي العام الاميركي على دائرة مغلقة الا على الصوت الصهيوني انما تغذيه اسرائيل بفيض اعلامي كبير، حتى انها لتوصل تقاريرها الى ما يبلغ عدده ٢٠٠٠ نشرة اميركية، تنشر المادة الاعلامية الاسرائيلية.

★ ان وسائل الاتصال الاعلامية الجماهيرية Mass Media، لا تشتغل صحافة بالمعنى المعروف بمقدار ما تعمل بالسياسة، ويذهب ادوارد سعيد حتى الى القول، ان هنالك فرقا كبيرا بين الصحافة الاميركية والاسرائيلية فبينما الاخيرة مفصلة، وتشمل موضوعات متعددة تصور حالة العرب تحت الاحتلال، الا ان الصحافة الاميركية لا تفعل الا انها تعبىء اوعية معينة عن الشرق الاوسط من المنطلقات الستة التالية:

١ - الحضور الكبير للارهاب العربي والاسلامي في هذا الشرق الاوسط.

٢ - وان الشرق الاوسط هو بؤرة الاصولية الاسلامية.

٣ - ان السلوك البشري في الشرق الاوسط مرده الى احقاد عرقية ودينية.

٤ - ان الشرق الاوسط هو منطقة متنازع عليها من جهتين: جهة ديمقراطية وذات حضارة كبيرة، قوامها اسرائيل ومعها الولايات المتحدة والاخرون هم البقية الباقية في هذا الشرق الاوسط.

٥ - ان الشرق الاوسط هو موقع عودة اللاسامية.

٦ - ان الشرق الاوسط هو منبع لشرور منظمة التحرير الفلسطينية التي لا مسوغ لها.

★ ان هذه التغطية الاعلامية تتميز باللاموضوعية.. وان الحقيقة تستمد صدقها او

مصداقيتها من قائليها وليس من موضوعيتها فكل ما يعادي اسرائيل يعتبر شريرا او مخطئا بالرغم من محتوى ما يقوله، لدرجة انه يجري عملية حذف للحقائق التاريخية لحساب الحقائق الايديولوجية المصفاة بعناية!

★ ومع هذا فان دراسة ادوارد سعيد عن الاعلام الاميركي، كأي دراسة تتوخى الموضوعية في منهجيتها، لا تنسى ان تذكر ان هنالك حالات، وحالات مشرقة، في هذا الاعلام، تخالف التوجه العام له.. وتظهر هذه الحالات عندما تخف حدة المعارك الانتخابية وبخاصة معارك رئاسة الجمهورية: فقد سجل الرأي العام الاميركي في مثل هذه الحالات المتوازنة مثلا: انه مع حق تقرير المصير للفلسطينيين.

وعلى اية حال فان من هذه الحالات المشرقة التي يتحدث عنها الكاتب حالة العالم الاسرائيلي اسرائيل شاحال، استاذ الكيمياء في الجامعة العبرية والعلامة اللغوي من اصل يهودي: نعوم شومسكي.. اللذين نشرا دراسات تجاوزت اصولهما وانتسابهما العرقي او الديني ووضعهما على درجة عالية من المناقبية العلمية الراقية التي لا تتوخى سوى الاخلاص في قول الحقيقة.. والّا الصدق والموضوعية منهجا مهما كانت التكاليف والتضحيات.

وهذان العالمان واضرابهما، من اجل ان يعوضا عن ضعف انصارهما، وسط التيار العام الرئيسي المعارض، فانهما يتعاونان مع بعض القوى المتفرقة هنا وهناك.. ومع هذا فان هذه القوى كما يرى الدكتور ادوارد سعيد تبشر بالتنامي والقوة: ومن هذه القوى بعض محطات الاذاعة، وما يسميه الصحافة الصغيرة، والاجتماعات العلمانية مع الطلاب والاساتذة.. ومع هذا ايضا فالمعركة بين الاسماك الصغيرة والحيتان الكبيرة.. بين القلة والكثرة، لا تنقصها الشراسة والعنفوان.. وهو يرجو ان تتمخض عن نتائج طيبة، اذا لم تتراجع الفئة الصغيرة والتي هي على حق.. وهو يحذر من اي تراجع لها حتى لا تحشر في المخزن او المستنقع! وتصبح مادة باتنه لا نفع لها.. ولا فائدة.

هذا هو الموقف الاعلامي الاميركي كما تصوره هذه الدراسة التي ظهرت هذه الايام.. وملخص ما تذهب اليه: انه يظل - كما ذهبت الدراسة الاولى - في الرأي العام الاميركي من هو على استعداد لقول الحقيقة والدفاع عنها مهما كلفه ذلك من عنت وتضحيات.. ولعله من هنا يمكن تخريج ما قامت به محطة الـ NBC ولكن هؤلاء يظلون يشكلون فئة قليلة، وسط تيار كبير معارض.. يحتاج منا ان نعمل بقوة على تحييده.. ومن ثم كسبه لطرفنا.. ولكن كيف؟ هذا ما نرجو ان نجيب عنه في مقال اخر..

ماذا حدث للسمفونية التاسعة؟؟

أصالة الشخصية... البعد الانساني

نحن ازاء الشهيد وائل زعيتر ... امام نموذج فريد ... نمط خاص ... ربما يعتبر مثالاً ممتازاً على العهد الذهبي للعمل الفدائي ... في بواكيره ...تلتقي فيه معاني الفرادة والتميز والسمو الى وجه القداسة !! هذا النموذج مصنوع من قماشة نادرة ... عراقة في الانتساب ... من بيت علم ودين ..من مدينة نابلس ...جده العالم الديني عضو المجلس الاسلامي الاعلى بفلسطين ورئيس بلدية نابلس في العشرينات من هذا القرن الشيخ عمر زعيتر ، ووالده العلامة عادل زعيتر ... مترجم الروائع عن الفرنسية وبين الخريجين العرب الاوائل من السوربون (١٩٢٥) .

والى هذا الجانب... في الاصالة.. اضم جانب الحداثة... فوائل ابن عصره يتحسس مشاكله.. ويعاني تجربة المعلم في الجامعات العربية والأدبية.. وهو يعايش تحديات العصر.. ويتفاعل معها: يأخذ منها ويعطيها .

في المحصلة... هذه العوامل..صنعت من وائل انساناً فيه سماحة الشرق وتدينه... فهنالك اجماع بين من كتبوا عنه من الغرب والشرق.. ان ضميره ممتلىء بالخير.. ونفسه مترعة بالحنان... كما صنعت منه انساناً فيه تطلع الغرب الى التجديد والابتكار... واستخدام العقلانية في الحكم على الاشياء... وفوق هذا فان هذين البعدين في الشخصية: الشرقي والغربي افضيا به الى ان تتجاوز شخصيته الحدود وتسمو على القيود... والجغرافية ، يقول عنه البرتو مورافيا الكاتب الايطالي الشهير... والحاصل على شهادة نوبل: وائل عالم اسطوري بلا حدود.. ويقول ايضا عنه: انه يعيش خارج حدود الزمن... ويضيف الى ذلك قوله: ان خيال وائل ومزاجه الذي يؤثر التجوال والتنقل تجعل الانسان يفكر بعالم بلا حدود او جنسيات.. عالم ديني مترامي الاطراف. ولا ينسى مورافيا ان يرد هذه الصفات في وائل الى اصولها العربية فيقول: انها تجسيد لبعض الصفات العربية التي هي محبوبة واسطورية.

من هذه الشخصية الكبيرة الشاملة شمول العالم..يكون - في وائل - الايمان بالمبادىء الانسانية... فهو يدعو الى سلام حقيقي يسود هذا العالم المضطرب.. وهو

يدعو الى تعايش انساني سعيد... بين بني البشر... وهو في هذا ينطلق من اصالته المحلية... وان قضيته هي قضية لشريحة انسانية تستحق ان يحقق لها العدل... ويخيم على شعبها السلام... وتظل صورة وائل في اعين من عرفوه...وبخاصة اولئك الذين عاشوا معه السنوات العشر الاخيرة (١٩٦٢ - ١٩٧٢) في روما... صورة فذة لابن الانسانية البار... وناسك من نساكها المتبتلين في محرابها... وسالك من سالكي طرق انبيائها ودعاتها .

وانه ليس بلا مغزى ان هذه المبادىء..كلفته غالياً..الى درجة انه دفع حياته ثمناً لها... ففي مقاله الاخير في جريدة الاسبرسو الايطالية الواسعة الانتشار... يهاجم وائل الارهاب... وما ترتب عليه من موجات الكراهية... ويكرس فكرة التعايش... وينبذ العدوانية وسفك الدماء .

يكفيك ان تتأمل هذه النزعة الروحية الاصيلة في وائل في استشهاده بقول الصوفي الانكليزي تومسون الذي تحس منه اهتمامه بكل مخلوق.. انساناً او حيواناً او نباتاً... في هذا الوجود الكبير :« ان هنالك رابطة خفية خالدة بين الاشياء، بحيث انك لا تستطيع ان تحرك زهرة بدون ان تؤثر على نجمه في السماء».

المثقف، المفكر، الفنان - الانسان

..كان وائل مثقفاً ثقافة كبيرة... قوامها الاحساس العظيم بالاشياء من حوله... مثقفاً لا غشاوة على بصيرته.. وكما يصفه البرتو مورافيا... وهو من اكثر من عايشه وعرف أبعاداً متعددة في شخصيته، يحس دائما بالدهشة، كانه قادم لتوه من عالم اخر الى عالمنا هذا. وهذه صفة اصيلة في الفنان ، اي فنان... تحدث عنها.. وعن معاناتها الفنانون بانماطهم المتعددة من جوركي الى صلاح جاهين... لقد كان وائل...هذا الذي استمد شهرته من كونه مناضلاً سياسيا أولاً وقبل شيء ، يتعامل مع هذا الوجود، كما يتعامل الشاعر او الرسام... ويتراءى له هذا العالم او يتجلى كلوحات خالدة...متتالية الوجود او الحضور.

وعندما وصل الى روما لاول مرة استغرقته كفردوس ارضي... وبقي فترات طويلة لا يفعل الا انه يفكر ويتأمل، لقد احب روما حبا جما..كما احب الحياة.. واستشعر روعة اللحظة.. وعاش في جو خاص.. يسميه العارفون: جنة الفنان.

في توجهه الثقافي كان موسوعيا... يأخذ من كل علم بطرف.. ومن كل فن بنصيب.. عانى القراءة حتى الاعماق... عشق الادب الايطالي.. وبخاصة الشعر.. هوّم مع الموسيقى.. وهو الذي تساءل تساؤله الشهير في احدى المناسبات، لماذا تشقى البشرية وفيها سيمفونية بتهوفن التاسعة التي تدعو الى التآخي البشري ونبذ الخصومة...ونحن نستعيرها هنا عنوانا لمقالنا من صديقه الكاتب الايطالي برنو كاجلي الذي جعلها عنوانا لمقال كتبه على اثر استشهاد وائل.. لقد كان وائل في عشقه للموسيقى وتعويله على دورها في حياة الانسان - كما كان الفيلسوف الالماني شوبنهور - الذي كان يردد دائماً: لا خلاص الا بالموسيقى:وهكذا فانه عندما سئل صديقه رئيس بلدية روما البرتو بنزوني ان يجد تفسيراً لحماس وائل للموسيقى، وانفعاله بها ربطها هذا بالبعد الانساني... «لقد كان وائل يعيش ماديا فيزيائيا الافراح والالام المتعلقة بالحضارات التي تعبر عنها تلك الموسيقى».

بالاضافة الى كل هذا... كان وائل صديق المثقفين... ومن هنا تشكلت حوله هذه الهالة الثقافية الخاصة في روما... ومن هنا اصبحت لكلماته ومناقشاته واقواله اصداؤها في الصحافة والفكر... ولان وائل كان مسكونا بفلسطين... فقد اصبحت فلسطين بالتالي، مركزاً لاهتمام هؤلاء المثقفين... ولعله من هنا حقق وائل في عمله للقضية الفلسطينية والعربية على الجبهة الثقافية - السياسية لربما اكثر مما تستطيعه كوكبة من السفراء ورجال الاعلام... ولعل وائل ينطبق عليه القول هنا، وبلا مبالغة ، رجل بأمة.

بايجاز كان وائل طوال الوقت مشحونا وممتلئاً بالثقافة والهموم الثقافية لانه بطبعه ومزاجه كان فنانا... فيه نزعة الفنانين الى اخذ الامور كما تتفق... بشيء كبير من البساطة واللا ابالية... ولكن لنتمهل قليلا... فلا ابالية وائل... كانت تنتهي عند حد معين... وهذا ما يجعلنا ندخل... في البعد الثالث ، ونصل الى الورقة الثالثة في تكوين وائل... ومقومات شخصيته النضالية.

ان وائل .. لم يكن فدائياً عادياً ..ولو انه كان فدائياً يحمل رشاشا.. سلاحه الشعارات والكليشيهات لقد كان وائل نتاجا تاريخياً انسانيا، لقضية عظيمة، وتجسيدا رائعا لعدالة هذه القضية ، ولسانا فصيحاً مبينا عن ظلامات الشعب الفلسطيني... لقد كانت بايجاز تجسيداً رائعاً للدفاع عن الحقوق الوطنية الفلسطينية، للدفاع عن قضيته... يقول احد الكتاب الايطاليين مصوراً وائل كما فهمه: «لم يكن وائل يطالب بفاتورة تدفع ... ولكنه ثائر عالمي النزعة بين ثوار اخرين يناضلون من اجل البشرية... وفوق كل هذا لقد كان انساناً».

المناضل - الانسان

بالنسبة لوائل المناضل كانت فلسطين حجر الزاوية... انطلاقه الرئيسي... المركز والمحور الذي حوله يطوف ويدور ...نضاله لها بشهادات من عرفه وعايشه من الكتاب والصحفيين وعمالقة الفكر والادب كان نشاطا غير عادي . ولكن له مقومات ومزايا لا تتوفر الا لكبار المناضلين. يقول احد الكتاب الايطاليين محللا قوة الكلمة في موقف وائل: «ان الاخطر دائما تجده في الشخص المسلح بالثقافة والاحساس بالتاريخ وحب الخير للبشرية كافة» ...وبالفعل فقد كان وائل يتسامى دائما عن الاخطار التي ارتكبت ظلماً وعدوانا بحق شعبه... ولا يقع اسيراً للحقد والكراهية... بل يصر على مثله في السلام والاخوة البشرية... ولعل هذا هو كلمة السر في أن وائل اكتسح جميع خصومه من انصار الصهيونية والاستعمار... لانه لم يقع ضحية الفردية والشوفينية والعنصرية... وتجاوزها الى رحابة الانسانية والمبادىء السامية في الحياة... اكثر من هذا ان هذه المبادىء الانسانية وتحقيق العدالة للمظلومين من بني البشر والفلسطينيين في طليعتهم في هذا القرن الحالي، القرن العشرين، هي التي جعلت من وائل هذا المناضل العظيم الذي اقترن اسمه باسماء كبار المناضلين في هذا القرن الحالي.

اذن كان وائل ينطلق في نضاله من فكر عميق ، والفكر كما يقول المثل الفرنسي، اولاً ... ومن هنا فقد جاءت منهجيته في العمل السياسي والنضال السياسي.. انها منهجية تكاد تكون كاملة شاملة ، لا تعرفها الا في كبار العلماء : معرفة رصينة وحوار ونقاش بناء... مبرمج... وقدرة كبيرة على استقطاب العقول الكبيرة من السياسيين والمفكرين على السواء... حتى ان الكثيرين ليستعجبوا بهذا الانسان البسيط الذين يشاهدونه في اول النهار يتجول هنا وهناك لا يلوي على شيء ، حتى اذا وصل الى اخر النهار رأيته يجلس مع هؤلاء الاساطين الكبار... ويولونه بينهم منزلة خاصة!! او بالضبط كما قال احدهم: «كان يعاشر شخصيات مشهورة ولكنه كان يعيش حياة في منتهي البساطة والتقشف».

لقد كرس وائل جهده كله لقضيته... وفي المراحل الحساسة للنشاط السياسي كان يعمل من الصباح الى المساء يصدر نشرة فتح في روما... ويتحدث الى كل الفعاليات الصحفية والثقافية ولرجال السياسة وزعماء الاحزاب ومراكز الثقل في الرأي العام الايطالي، يحاضر، ويكتب في الصحف، ويلبي دعوات للمناقشة والحوار.

ولم يلبث طويلاً ، ومن جراء هذه السياسة القائمة على الابواب المفتوحة... ذلك الانفتاح على الجميع بلا عقد، او تقييد، تجمعت لديه قواسم مشتركة، من التأييد والدعم

السياسي... اكثر من هذا لقد كان وائل رجل التحالفات الناجح... التحالف بين طبقات مختلفة وفئات مختلفة يصبون جهودهم حول القضية الفلسطينية، ولقد اندهش الفلسطينيون من البساطة التي تمكن بها وائل من تحقيق هذه التحالفات... ساعده في ذلك انه اصبح صديقاً شخصياً لقادة السياسة والفكر والفن. واستطاع ان يقيم جسوراً مع القوى التقدمية .

آية كل هذا ان هذه القضية الفلسطينية التي كانت شبه منسية ، قفزت في وقت قصير لتمثل الصدارة في الاهتمام السياسي والثقافي والاعلامي لدى الشعب الايطالي... لقد حطم وائل جسور الصمت التي نصبت حول القضية الفلسطينية... وهي استراتيجية صهيونية معروفة، لقد قام وائل... هذا النموذج النادر للعمل السياسي في الغرب، بعمل خارق حقاً، ومن هنا ولدت الاسطورة. هذه الاسطورة التي لن يرضى اعداؤنا الا بالقضاء عليها.. وهيهات.. انهم لم يستطيعوا ان يمنحوا وائل الا الاستشهاد .

الشهيد - البطل - الاسطورة

في احدى الامسيات (١٦ اكتوبر ١٩٧٢) بينما كان وائل يتوجه نحو بيته بعد يوم طويل من العناء والعمل، وهو يحمل لفافة من الورق فيها بعض الارغفة ، وبعض الادم ، وكما اظهرت ذلك صور استشهاده فيما بعد، انهالت عليه كالمطر... رصاصات اودت بحياته! ويقال ان وائل صرخ قبل وفاته صرخة هائلة... صرخة تصور فداحة الظلم الواقع على رمز قضية!! ولكن صرخته ذهبت ادراج الرياح ...ولم يكن هنالك مجيب!!!

ويأتي صوت تل ابيب... وصوت جولدا مائير رئيسة الوزراء تقول: ان الرصاصات ذهبت الى حيث ينبغي ان تذهب... واصابت الهدف المحدد.

...ولكن هل مات وائل حقاً ؟ هل تموت العبقرية... التي تتعامل مع الاشياء والناس والحياة من صفة الاطلاق والشمول والخلود.

عندما وصل نبأ استشهاد وائل الى البرتو مورافيا قال : لقد فجعني موته ايديولوجيا وعقائديا... كما ردد كثير من كبار الكتاب الايطاليين ان قتل وائل انما هو قتل رجل اسطوري.

ان وائل بالنسبة لكثير من الطلاب الفلسطينيين والعرب الذين تتلمذوا عليه ...في ايطاليا.. آو من قرأوا سيرته او شيئا من سيرته يعتبر بطلاً... واظن ان صفة البطولة في وائل ستمتد الى اجيال تأتي .

ولكن لماذا هو اسطوري ؟ ولماذا تتساءل كاتبة ايطالية : انه لخسارة ان يخسر العالم هكذا رجل .

اغلب الظن ان صفة الاسطورة... ولدت من صفات الاطلاق والشمول... والوصول بالاشياء الى ابعادها العامة والنهائية...في وائل.. فهو مؤمن بقضيته ويصلي من اجلها حتى الاعماق... ويحاول نشرها في كل الوجود... ويتعامل معها بحب يصل درجة التقديس... بدون ادعاء وبدون تظاهر... وبتقشف وزهد. وهو لا يستخدم وسائل غير عادية في نشرها الا اساليب الاقناع والمنطق والتحليل العلمي.. ولا يتوسل الا الصداقة والانسانية والزمالة المخلصة وسيلة للوصول الى افئدة الناس وعقولهم حتى يوظفها لخدمة قضيته.. وهو يعمل طوال باسلوب حضاري انساني. كل هذه الاشياء مجتمعة لابد ان تشكل ظاهرة. وظاهرة متميزة.. لابد ان تشكل ان شئت اسطورة...ولعلك ان اردت البحث في بذور الاسطورة.. قبل ان تكتمل ويفجرها الاستشهاد العظيم فانه عليك ان تقرأ هذا الوصف لوائل من منير شفيق... وهو الذي عرف وائل عن كثب كرفيق كفاح.. وتحدث عن هذه الصفات:

كان وائل كادرا ثوريا موهوبا.. ولكنه كان يتصرف كعنصر عادي..

وكان متقشفا متفانيا منكراً لذاته..

ولكنه كان يملأ نفسه بغنى داخلي لا حدود له

وكان فنانا شاعرا مفكرا، ولكنه ظل تلميذا يبحث عن المعرفة.

وكان انسانا عاملا بسيطا، لكنه كان يعاني عذابا داخليا وقلقا عميقا.

وكان فتحاويا ماركسيا، ولكنه كان في نفس الوقت ناسكا صوفيا.

والاهم من هذا انه اعطى الثورة الفلسطينية كل هذا ودفعة واحدة!

ارأيت الان... الى اصالة الشخصية والبعد الانساني.. والى المثقف والمفكر والفنان - الانسان ، والى المناضل - الانسان ايضا ، والى الشهيد - البطل.. اليست هذه مجتمعه... كفيلة بصناعة الاسطورة اظن أن الاجابة: بلى!!!

سليمان خاطر ومعادلة الموت الصعبة

نحن ازاء قضية سليمان خاطر واستشهاده امام ثلاث معطيات رئيسية:

المعطى الاول : ان سليمان خاطر نبتة طاهرة من نبتات ارض الكنانة الخصبة المعطاءة. نبتة عميقة الجذور ، تذهب بعيداً في التربة المصرية العربية الاسلامية، وتلتقي في عمقها بشخصيات عظيمة مثل صلاح الدين وسيف الدين قطزوالظاهر بيبرس وسليمان الحلبي. هذه النبتة الكريمة.. والشخصية الطيبة المعطاءة، ارادت، في هذا الزمان العربي الرديء ، وبعمل بطولي ان تعيد للشرف المهدور اعتباره، وان تلبي نداء الملايين في الرد على المعتدي، وبين عشية وضحاها يدخل عمل سليمان خاطر البطولي إلى كل بيت مصري كما يدخل بنفس الروح إلى كل بيت عربي. وتتحول البطولة إلى رمز... ويكبر الرمز ويكبر حتى يخيم بتفرده وقوته ومصداقيته على عالمنا العربي من المحيط الى الخليج. وتحتضن صورة سليمان مشاعر الشباب والفتيات والشيوخ والاطفال... وكيف لا! وهو تجسيد للانتفاض على القهر والعدوان... وثورة على العجز والاستسلام والخذلان، ورد مشروع على الاستبداد والاستعباد والظلم والارهاب... هذا هو بايجاز سليمان خاطر !.. ومن هنا فانه ما ان صدر عليه الحكم بالمؤبد... حتى انتفض الضمير العربي في كل مكان، وشعر بهول المصيبة... فمن كان ينبغي تتويجه بأكاليل الغار، هاهو يهال عليه من السلطات الغبار ! ومن تمتع بقدسية وجلال الرمز.. يوصم بانه مجرم قتال! ولان الضمير المصري والضمير العربي لا ينام على ضيم.. فانه بدأ يضغط باتجاه انقاذ سليمان خاطر، وهو في هذا - وهو ايضا على حق - لا يقبل باقل من الافراج. وتقوم بهذا الضغط قوى خيرة ومباركة في مصر والعالم العربي، تنطلق من منطلقات سليمان خاطر في رفض الاستخذاء والاملاء .. فلاحون ومدنيون... احزاب ومواطنون عاديون، صحافة وطلاب الكل يضم بين جوانحه قضية سليمان، ويعيش معها تجربة حب قدسية.. يحتضنها املاً وعزاء.. واشراقة باسمة... وغذاء روحيا.. وعلى هذا فهو لا يمكن ان يقبل بالتخلي عن سليمان... وهو يضغط ويضغط حتى يتم تحرير سليمان... موجز القول ان هناك قوة ضاغطة عظيمة بعظمة مصر وشعب مصر... وباتساع العالم العربي والشعب العربي... وهي لا تقبل بأن يذهب ضغطها هباء... وتصل بهذا الضغط الى نهايته الحدية... وتوصل الامور فيما يعرف بالعرف السياسي الى درجة المأزق.

والمعطي الثاني: انه بمقدار ما يمثل سليمان من قدسية فان هنالك جهات اخرى، تريد قتله!

اريد حياته ويريد قتلي
عذيرك من خليلك من مراد

وهؤلاء هم عتاة الدوائر الصهيونية ومن ورائها الدوائر الاستعمارية، هؤلاء الصهاينة الذين هم ورثة حياة الجيتو بكل ما تعنيه وبما رسخته في سيكلوجية اليهود من حقد وشر وحب وانتقام ! وعلى هذا فهم يؤمنون ايمانا اكيداً أن الدم اليهودي دم مقدس،وان كل من يسفح هذا الدم لا ينبغي ان يمر بدون انتقام، ولو بعد حين! وان اليد اليهودية ستكون له بالمرصاد مهما شتت به الديار. هكذا يعتقدون !.. وكانت لهم في ميدان الانتقام من الجنود والضباط البريطانيين في الايام الاخيرة من الانتداب قصص ومأثورات !

هؤلاء اليهود، من اول يوم حصلت حادثة مقتل اليهود في سيناء ، طالبوا بدم سليمان خاطر، متناسين مذابحهم في كل مكان من ارض العرب... من بيروت الى مصر الى تونس! ولم ينسوا في تصعيد تهديداهم ان يضعوا العلاقة بين مصر واسرائيل على المحك! حتى باتت معاهدة كامب ديفد والانسحاب من سيناء وقضية طابا وكل شيء مرتبط بتنفيذ حكم الاعدام بسليمان ! حتى اذا حكمت المحكمة العسكرية عليه بالسجن المؤبد.. طاش سهمهم وخاب فألهم ، وتميز غيظهم وقال قائلهم ان هذا الحكم يعني ان الحكومة المصرية غير جادة وان معاهدة كامب ديفد قد لا تساوي الحبر الذي كتبت به، وان هذا الموقف من القضاء العسكري ومن الحكومة المصرية يحمل الكثير الكثير... ولابد ان يكون له ما وراءه ! وعلى الاثر بدأت الحكومة الاسرائيلية التي تحركت في كيانها افاعي الشر ، تمارس ضروبا من التهديد المعلن والمبطن ، وبكل ما تملكه اجهزتها من وسائل معلنة وخفية! مادية ومعنوية! وهي بما لا شك فيه تملك أدوات ضغط متشعبة على مصر في هذه المرحلة الرديئة من تاريخ العرب المعاصر. ويبلغ الضغط الاسرائيلي في الاتجاه المقابل لضغط الشارع المصري والعربي، مداه ، وبشكل يكاد يخنق السلطات المصرية ، بحيث تصبح امام الصديق والعدو في وضع لا تحسد عليه فما العمل؟!؟!

وهنا سندخل في المعطى الثالث: والذي ينبع من المعطيين السابقين.. معطى القداسة والنداء.. ومن يريد انقاذهما والاعلاء من شأنهما، ومعطى الحقد والانتقام والحقد والشر

والاستعباد والاستعمار، ومن يريد ، على ارض الكنانة تكريسهما وتحقيقهما... صراع جبار ! بين من يريد انقاذ الطهر والبراءة وروح الاستشهاد،،، وبين من يريد تدميرها والقضاء عليها... وفرق كبير بين من يريد الحياة ومن يريد الموت !

هكذا اذن اصبح موضوع سليمان خاطر قضية كبيرة وشائكة... يلتقي فيها وعليها النقيض مع النقيض... الموت مع الحياة.. الشرف مع العار ، الوطنية مع الخيانة!! وكل هذه النقائض تصب، في خانة الفريق الثالث أو القوة الثالثة التي بيدها ان تحسم هذا الصراع، وتجيب على السؤال المطروح، ما العمل!! ومن اجل تحييد موضوع سليمان خاطر، وطيّه والخلاص منه! يشعر هذا الفريق الثالث، والذي تلتقي عنده مصالح الاستمرار مع كامب ديفد، وتعتمد مصالحه على تكريس التطبيع، يشعر ان لا نهاية لهذا الضغط الفظيع الذي يكاد يأخذ بالانفاس الا بالهروب من المشكلة ، ومن هنا تتم تصفية سليمان خاطر ، ويغلق ملفه! من اجل تغييب اسباب القلق والاضطراب مرة واحدة والى الابد ! او انهم هكذا ظنوا وحسبوا وتوهموا !!

تبقى الامور الاخرى... من مثل من قتل سليمان خاطر؟ هل هم الموساد.... او غيرهم... ولماذا كان سيناريو صحيفة المصور الذي قصد الى امتصاص روحية سليمان وقتل الرمزية فيه ؟... وايضا الادلة ، والشواهد الاخرى ان البطل لا يمكن ان ينتحر... وكيف ينتحر وهو محاصر باحد عشر حارسا يقيمون معه في غرفته... ونحن نقول ان هذه الامور والاعتبارات جميعاً - على اهميتها - ثانوية او انها تكميلية تفصيلية امام معادلة سليمان خاطر الصعبة! وبدا للجهة التي نفذت حكم الاعدام فيه ان لا حل لهذه المعادلة الا بالقتل !!

أكرم هنية ورحلة الفلسطيني الى المنافي

شهدت الارض المحتلة في الاونة الاخيرة ابعاد الاستاذ اكرم هنية رئيس تحرير جريدة الشعب المقدسية اليومية الى اوروبا ، حيث يعيش الان في المنفى ، بعيدا عن وطنه واهله واصدقائه .

واكرم هنية وبكلمات قليلة، شاب فلسطيني مناضل من رأسه الى اخمص قدمه، ونضاله هذا نابع من عشقه العظيم لوطنه، ورغبته الاصيلة العميقة، التي تتولد من هذا العشق ، في التضحية من اجل هذا الوطن... فقد اعتقلته السلطات الاسرائيلية اكثر من مرة، وحققت معه مرات، ووضعته تحت الاقامة الجبرية سنوات... ومع ذلك لم تلن له قناة ولم يتراجع عن حماسه واندفاعه، او يقبل بالتنازل عن مبادئه التي نذر نفسه ودمه لها.

وهو في نضاله هذا ينتمي الى الجيل الجديد.. او النخبة الجديدةالتي ولدت او تبلورت في عهد الاحتلال - كما تولد زهور الاقحوان في بلادنا - وهي فئة ليست بالقليلة بل انها كبيرة بحجم الوطن نفسه وتميزها الشمائل والمناقب التالية:-

● ايمان عميق بالهوية الفلسطينية ، او ما يسميه اكرم هنية ، الثالوث المقدس: حق العودة وحق تقرير المصير واقامة الدولة الفلسطينية ، وهو لذي يصف تجربة اعتقاله اخيرا قبيل اخراجه: «عندما طلب الي الرد على الاتهامات اعترفت بجريمة واحدة فقط... وعندئذ تهللت وجوههم بالفرح والاثارة.. اعترفت بانني فلسطيني فخور برفض القبول بالاحتلال الاسرائيلي، والمطالبة بحق شعبي بالحرية والاستقلال».

● شمولية كبيرة لجميع الفئات والقطاعات، من ابناء الوطن الواحد، بدون تفريق بين اي نوع: اجتماعي او سياسي او اقتصادي، يجمعهم ويوحدهم، موقفهم الواحد ضد العدو، وينسيهم تناقضهم مع العدو، اي خلافات فرعية كانت تغلب على الجيل القديم او التقليدي من مثل الاختلاف العائلي او الاختلاف على النفوذ والمصالح. ويضرب البروفسور مايكل هدسون، الاستاذ بجامعة جورج تاون، على هذا مثلا، في دراسته عن حركة المقاومة الفلسطينية، بالعناصر التي احتوتها حركة فتح الفدائية بعيداً عن تأثير الطبقية او الفئوية او النزعة الانعزالية التعصبية، فهي تحتوي على جميع قطاعات الشعب

الفلسطيني ولكن من منطلق جديد: لاجئون، قرويون، فلاحون ، بروليتاريا مدنية خارج المخيمات، مهنيون من الطبقة الوسطى، ورجال اعمال ، ونخبة تجارية ميسورة الحال.

● مستوى متقدم من التعليم لدى قيادات هذه النخبة او لديها بعامة، ولذلك فان بعض الدراسين مثل ستوكمان يصننفهم بكونهم الذين يعلمون اكثر who know more.

● كفاءة عالية في النضال... قوامها بالدرجة الاولى التنظيم، النابع من التحديث والتعليم، فبدلا من العفوية والفوضى التي كانت عليها القيادات التقليدية، يوجد هنا التخطيط والتركيز. ولعل مما ساعد في هذا، التكوين او التركيب الحرفي الذي يعكس شيئاً من خصائص هذه النخبة الجديدة، والجيل الجديد، فهم بوجه عام من المحامين والاطباء والمعلمين والمهندسين والصحفيين والحرفيين والمثقفين ، وهناك اجماع بين الدارسين انهم من صغار السن تمتد اعمارهم من العقد الثاني الى الثالث والرابع ، يقول اكرم هنية: «الجيل الجديد يحدد ميوله السياسية قبل بلوغه سن الرابعة عشرة».

ولعل هذا النضال هو الذي مكن هذا الجيل الجديد من كسر حاجز الخوف من العدو، ويذكر كاتب هذه السطور انه عندما كان عميداً لشؤون الطلاب في جامعة النجاح، واستدعته سلطات الاحتلال لاول مرة، بعد مظاهرة للطلاب ضدها، وقبل ان يذهب الى رئيس الجامعة الدكتور منذر صلاح، لمقابلة هذه السلطات، ان الطلاب كانوا يبتسمون لهما، ويقولون «لاتهتما بهم!» يقولونها بكل ثقة، بعد ان جربوا وادركوا من خلال صراعهم مع العدو انه بالرغم من كل اساليبه القمعية، يظل نمراً من ورق!

● ولاء كبير لمنظمة التحرير الفلسطينية، ويجسد هذا اكرم هنية فيقول: «منظمة التحرير فكرة وحلم»... ويقول ايضا «بسبب الاحتلال الاسرائيلي فان الشعب الفلسطيني مرغم ان يكون له فكرة وطنية ممثلة بمنظمة التحرير. وبكلمات اخرى فان الاحتلال والتحدي الاسرائيلي يضمن استمرار المركزية القائمة في اساس وجود منظمة التحرير. وبكلمات منمقة، فانه يمكن القول انه طالما بقي فلسطيني واحد فان فكرة منظمة التحرير ستبقى قائمة».

وما منظمة التحرير في الوطن المحتل ، الا رمز لطليعة وطنية تريد تحقيق ما يهفو اليه او ما يحلم به، وما يعمل من اجله ابناء الوطن المحتل، ولذا فان اللقاء معها بالنسبة لهؤلاء لقاء يصل درجة التطابق. ومن هنا ينبع الولاء لها، وتترسب العواطف حولها، وبالرغم مما

قد يؤخذ عليها او يحيط بها من جوانب نقد احيانا، ويجري الاستمرار على هذا التأييد والولاء والتعاطف رغم كل التحديات، ووسائل الترغيب والترهيب من قبل العدو.

الصحافة سلاحه الاول

هذه نبذه عن خلفية اكرم هنية ، وبعض من جوانب فكره وتوجهاته ،والجيل الذي يرمز اليه،ولكن ما هي وسيلته الاولى للنضال ؟ ان الوسيلة الاولى للنضال لدى اكرم هنية هي القلم والكلمة... «وفي البدء كانت الكلمة...» فأكرم الشاب النابغ، اتقن فن الكتابة، وفن الصحافة... ورأس جريدة الشعب.. وهنا لابد لنا من وقفة مع هذه الصحافة المجيدة في الوطن المحتل:

● فهي عضو فعال في آلية العمل السياسي والمقاومة الوطنية، باعتبارها اداة للناشطين السياسيين ضد العدو من ناحية حتى انها لتدخل المنشور السياسي من خلال اعمدة الجريدة، وعلى هذا فقد اتسعت صفحاتها لاستنكار وفضح اساليب الاحتلال الوحشية ومؤامراته... يقول تقرير لمجلة دراسات عربية: «تلعب الصحافة في الارض المحتلة دوراً فائق الاهمية ليس على صعيد الثقافة بل تتعدى ذلك الى احتضان كافة القضايا السياسية المناوئة للاحتلال».

ولقد ساعد في استمرار هذه الصحافة على الصدور بالرغم من كل التحديات والمعوقات، أن هذه الصحافة تفيد لكونها تصدر في القدس من هامش الحرية الذي يتيحه قانون الصحافة الاسرائيلية ،باعتبار ان القدس تقع ضمن المنطقة الاسرائيلية ، بعد اعلان ضمها رسمياً من قبل الاحتلال . ولعل ما تهدف اليه اسرائيل من اتاحة هذه الحرية المدروسة والهادفة هو: اظهار الاحتلال بانه ليبرالي، وامتصاص نقمة الجماهير، والطموح الى ايجاد قواسم مشتركة ، وخلق وجوه واقلام جديدة وفق مخطط العدو في صراع الاجيال وصراع الافكار.

ولكن اكرم.. لم يقع ضحية هذا المخطط الخبيث، ولم يقع رفقاؤه وزملاؤه ضحية ايضا. وبالنسبة لاكرم فقد حدد لصحيفة الشعب المجالات التالية في النضال: محاربة الصهيونية اولا ومن ثم محاربة الجمود والنزعة التقليدية بمن يمثلونها من الزعامات التقليدية وبخاصة من بينها تلك المتواطئة مع الاحتلال مثل روابط القرى.

وهو بحضوره الثقافي - كاتب واديب - والصحافي المميز يجعل لهذه الصحيفة

خطها ايضا ، المتميز ، بين الصحافة الفلسطينية المناضلة ، بحيث قامت صحيفته – بالتعاون مع الصحف الاخرى – بدور سياسي كبير وتوصيل للشعب حميم، وولدت اتجاهات، ونمت مفاهيم وحفزت تيارات بشكل جديد ومتحد، وبما لم تشهده الصحافة الفلسطينية بهذه الكثافة والعمق والمنطق في تاريخها الحديث كله.

فجر رحلة الضياع

من هنا فان سلطات الاحتلال، سيرا منها على خطتها في تفريغ الارض المحتلة من طاقاتها البشرية وقياداتها الفعالة، حتى لقد بلغ عدد المبعدين من هذه القيادات، من مختلف التخصصات المئات بل الالوف ، نقول: لكل هذا عمدت هذه السلطات اخيرا الى ابعاد هذا المناضل الكبير الى اوروبا، ليبدأ رحلة الضياع، بدلاً من رحلة الحشد والبناء والصمود، رحلة الانتقال، حاملا حقيبة السفر، من محطة الى محطة، ومن قطار الى قطار، ومن طائرة الى طائرة... وهو يصف لحظة مغادرة الوطن: «كانت أظلم لحظة واحلك لحظة واسوأ لحظة على الاطلاق، كانت بداية رحلة الى المجهول... رحلة الفلسطيني الى المنافي». ويضيف: «اعتدت على العيش في الفنادق... واعتدت على الخوف والقلق اللذان يلازمان الفلسطيني عندما يصل الى نقطة حدود وعندما يصل الى احد المطارات».

هكذا يسير صديقنا، ويعيش، بعيدا عن وطنه! على درب الالام الطويلة، كانما هو السيد المسيح يسير على درب الالام، يجلله تاج من الشوك! يحمل حمله الثقيل على ظهره... ويسير يسير... وسط العرق والدم والدموع... بدون ان يكتب له الوصول الى المرفأ!

لكن الفنان العاشق لوطنه في كيان اكرم هنية، ووجدانه لا ينسى هذا الوطن مهما نأت به المسافات عنه: فعندما قال له موظف الصليب الاحمر عندما كان يمتطي الطائرة من مطار بن غوريون متوجها الى جنيف بادئاً رحلة الدياسبورا (الشتات): «ان هذه لحظة تاريخية في حياتك»، اجاب اكرم: «نعم! انها لحظة قياسية!» اجل ! لقد احس اكرم هنية احساسا خاصا يعبر عنه بقوله: «واصلت كفاحي من اجل ان اظل محتفظا في ذهني بتفاصيل العالم الساحر الذي كنت اوشك ان افقده».

وبالنظر لاصالة هذا الموقف، وبالنظر لمنطقة النضالي من اجل هذا العشق الوطني الصادق والنبيل ...فانه نال عطف جهات كثيرة في العالم حتى بعض الاسرائيليين

انفسهم. فقد عبر روائي اسرائيلي بارز عن شعوره بالعار بسبب «طرد كاتب من ارضه».

ومع ذلك وبالرغم من كل هذه الشحنة العظيمة من الالم! فان هذا الفارس، في منفاه، وعبر رحلة الضياع لا يريد ان يترجل ! فهو مصمم على حمل قضيته في وجدانه وعقله، والدوران بها حول العالم ! يدعو لها ويبينها للناس: «اسافر من اجل الحصول على تأييد لقضية عودتي، والحيلولة دون مواجهة المزيد من ابناء شعبي للمصير نفسه».

وأكرم، في كل نضاله هذا، سواء على ارضه، او خارج ارضه، في رحلة العذاب .. أو رحلة المعذبين في الارض ، فلسطينيي هذا الزمان العربي الرديء! لا ينسى كما لا ينسى كل المناضلين الشرفاء ان يتسلحوا بسلاح التفاؤل: «تستمر رحلة الدياسبورا، ومع ذلك فبالرغم من ابعادي، الا ان القدس تبدو لي على نحو ما اكثر قربا الان».

اجل! لانك يا اكرم، ابن فلسطين البار، وبما انك مقاتل صدامي، من اجل قضية مقدسة، وتعرف جيدا كيف يسير التاريخ ،وكيف تتطور الاشياء، الى الامام، وليس الى الوراء، على طريق الحق والخير، والجمال.. فانك تدرك جيداً ان اسرائيل لابد زائلة! ولا محالة انها ستصبح اثرا بعد حين... يتحدث عنها احفادناكما نتحدث نحن عن غزو الافرنج لبلادنا في العصور الوسطى، ذلك لأن العشق العظيم - يا اكرم - لوطن عظيم سيتولد عنه نضال عظيم لابد ان يثمر ويؤتي اكله كما تؤتي غراس الزيتون اكلها في بلادنا.

لانك يا اكرم كل ذلك، وبما انك كل ذلك.. فانك بما لاشك فيه ستنتصر! وستعود لبلدك ولو بعد حين ! فقر عينا، وطب نفسا.. وسلام عليك في غربتك.. وتحية كبيرة كبيرة.. منا اليك!!

حياة الشقيري في كتاب

اخيراً، اخرجت لنا المطابع كتابا عن أحمد الشقيري بعنوان: الشقيري زعيماً فلسطينيا ورائداً عربيا... فعلي الرغم من ان احمد الشقيري ذو مكانه كبيرة، وقامة عالية في الزعامة الفلسطينية في العصر الحديث، فهو احد ثلاثة مع الحاج امين الحسيني وياسر عرفات، يملأون ساحة الزعامة الفلسطينية، ويقفون فيها على القمة، كما انه في حقل الريادة العربية، والتوجه القومي العربي، بمبادئه وافكاره العربية، وممارساته، يشكل ايضا مدرسة عظيمة، نحن بأشد الحاجة اليها، وبخاصة في هذا الزمن العربي.. هذا الليل العربي الطويل... اقول، على الرغم من هذا فان الشقيري لم يحظ بما يستحق من الكتب والدراسات المؤلفة عنه وعن دوره، بينما كثرت المؤلفات عن الزعيمين الاخرين نسبيا وبخاصة ياسر عرفات، فقد ندر البحث الموضوعي عن احد الشقيري والحركة الوطنية في عهده. ويعلل البعض هذا بان الشقيري كان قائدا بلا مؤسسة.. كان يلعب اللعبة وحده.. وعلى هذا فلم يتيسر له في عصر التحزب.. من يتصدى لايلائه ما يستحقه من عناية واعتبار... ولعله من هنا تأتي اهمية صدور هذا الكتاب الذي ألفته الدكتورة خيرية قاسمية، الاستاذة بجامعة دمشق وبرعاية من لجنة: «تخليد ذكرى المجاهد احمد الشقيري في الكويت».

واصدار هذا الكتاب يفتح الباب على مصراعيه لوضع احمد الشقيري، من جديد، على المحك.. او في الميزان.. ميزان التاريخ، لمعرفة ماله وما عليه، الايجابيات والسلبيات.. ولحسن حظ الرجل فان في ميزانه الكثير مما يمكن ان يحسب له.. بل ان المآثر والمنجزات ومناحي السلوك والخلق، الوطنية هي من الخصوبة بحيث تحصر السلبيات، والتي لا بد من وجودها، ما دمنا نتحدث عن انسان، في زاوية ضيقة جداً...

فما هي هذه المنجزات التاريخية للشقيري؟

● اول ما يمكن ان يحسب لاحمد الشقيري ، الزعيم الفلسطيني والرائد العربي،هو انشاء الكيان الفلسطيني، متجسدا بمنظمة التحرير الفلسطينية بعد ضياع خمس عشرة سنة من النكبة- الشتات.. ولم يمنعه هذا الدور العظيم ان يتنحى وهو مرفوع الرأس، وان يرتضي لنفسه، ان يجلس جانبا، الاثنى عشرة سنة الاخيرة، يدرس ويكتب ويحلل ويوجه وينصح... وانت اذا اردت ان تدرك عظمة هذا الانجاز، في انشاء الكيان

الفلسطيني: منظمة التحرير الفلسطينية، فان عليك ان تنظر اليه من هذه الزوايا:

– انه كان الخطوة الاولى على طريق الاحياء السياسي الفلسطيني بعد غياب كامل عن الصيغة والصورة السياسية العربية والدولية بعد خمس عشرة سنة.

– وان صيغة منظمة التحرير الفلسطينية، كان عليها ان تأخذ بعين الاعتبار وجود واحد وعشرين تناقضا عربيا.. وما اصعبها من مهمة! وكان عليها في الوقت نفسه، ان تأخذ بعين الاعتبار تشتت الشعب الفلسطيني، تحت كل سماء، في عشرات المجتمعات والتجمعات في دنيا العرب... والعالم..

– وان هذه المنظمة، ولدت قوية، وفاعلة، وذات وجود وحضور ووزن، أرسخ من اى تجربة مماثلة فلسطينياً او عربيا،وربما في العالم الثالث ايضا، فبين عشية وضحاها، ولان الشعب الفلسطيني كان قد حلم بها... وحملها بين جوانحه.. وضمها الى صدره، منذ ان خرج من ارضه، وآلى على العودة اليها.. وتحريرها من ايدي غاصبيها... اصبحت هذه المنظمة ملء العين والنظر.. تجسيدا رائعا وعظيما لطموحات الشعب الفلسطيني في التحرير وتقرير المصير.. وعلى الرغم مما مرت به المنظمة من مصاعب ومحن... فهي لا تزال موجودة وحاضرة وغنية برصيدها ووزنها.. وما زال الشعب الفلسطيني متمسكا بها بل هي مصدر فخر واعتزاز له.. ولا توجد مؤسسة اخرى تترسب حولها العواطف الفلسطينية: الرمز والحلم والحقيقة،كما هي المنظمة..

وللشقيري يعود الفضل في انه اول من انتزع من الاخوة العرب حق النطق باسم الشعب الفلسطيني، وهو اول من جلس مع الزعماء العرب، ندا لند، وكتفا لكتف،كما اعتاد ان يقول.. وهكذا تحول المقعد الفلسطيني في الساحة العربية والدولية، من مقعد رمزي منزو خجول الى حضور ديناميكي يحسب له الف حساب...

لقد كان الشقيري – رحمه الله – ضد القبول بالامر الواقع... ولم يقبل باقل من التحرير الكامل.. آمن بذلك وهو استاذ الدبلوماسية الحصيفة والسياسي رجل الدولة المرموق... والمجرب الذي عاش القضية منذ نعومة اظفاره وشرق بها وغرب.. وعمل لها.. ودار في فلكها ودارت في فلكه.. طوال فترة نشاطه على المسرح الفلسطيني والعربي والدولي... آمن بذلك لانه آمن بان الوجود الصهيوني العدواني المغتصب لا يمكن التعايش معه.. فاما نحن واما هو.. ولا يلتقي اسدان في اجمة!! وما اكثر الجماهير الفلسطينية والعربية التي تؤيد الشقيري في توجهه هذا، ولا تزال الايام تكشف لنا كل

يوم صدق فراسة الاستاذ الشقيري وعميق بصيرته... التاريخية... بالرغم من دعاة المرونة والتكيف والقبول بالحلول الوسطية.

النضال المسلح والجهاد السياسي

ومما له علاقة بانشاء الكيان الفلسطيني ، على جبهة الانجازات أو المنجزات ، تقعيد القواعد، وبناء التقاليد والمثل، ووضع النظريات والمنطلقات الاستراتيجية لمسيرة هذه المنظمة ضمن اطر، لا تتعداها على طريق التحرير.

– فمنذ بداية البداية، في انشاء المنظمة كانت هنالك دعوة الى الجمع والتنسيق بين العمل السياسي والكفاح المسلح، وان التحرير لا بد حتى يبلغ اهدافه، ان يقوم على هاتين الركيزتين.. فالمقاومة المسلحة تزرع ،والسياسي الثوري يحصد.. وهذا امر بديهي وقول حق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... سارت على منواله كل حركات التحرير في العالم، ولم تلق السلاح،حتى تحقق لها الانجاز السياسي الاكبر: الاستقلال والتحرير وحق تقرير المصير... فالمعادلة بين النضال المسلح والجهاد السياسي، هي رأس الامر كله، واي محاولة للاكتفاء بالنضال السياسي، بدون ان يعمد بالدماء المقدسة التي تراق من اجل الحرية، محاولة لن تفلح.. ضرب من الحراثة في البحر! فالخروج من هذه المعادلة، والقاء السلاح، قبل تحقيق الهدف السياسي الاكبر او حل التناقض الرئيسي... اعتمادا على مكاسب موهومة ، على الجبهة السياسية... هو ايضا ضرب من الانتحار!! ومراهنة خاسرة ليس أشد منها خسارة! فمعركة التحرير والاستقلال لا يمكن كسبها في كواليس المؤتمرات الدولية، ولا دهاليز الامم المتحدة.. وكل محاولة من هذا القبيل – كما جربنا وبلونا عقودا طويلة – هو عود الى المعارك الدونكشوتية وحصد الهواء!!

اللاءات الثلاث

– آمن الشقيري، ودعا الى مبادىء ثلاث... او ما عرف بعد حرب ١٩٦٧ باللاءات الثلاث، بالنسبة للعلاقة المصيرية مع العدو الصهيوني: لا قبول ولا اعتراف ولا مفاوضات... وهو يرفض رفضا مطلقا الاعتراف بالدولة اليهودية، ويقول: «لا يمكن للدولة اليهودية ان تقوم لها قائمة في الماضي او الحاضر او المستقبل،الا اذا اعترف العرب بها». وهو مؤمن بقدسية وتكامل التراب الفلسطيني من النهر الى البحر :«ليس هنالك من يملك التنازل عن الوطن، لان الوطن لا يملكه من يعيش عليه، بل هو وطن الاجيال

المقبلة على مر الزمن».

اما البديل.. في رأي الشقيري، عن الاعتراف والتعايش السلمي، والقبول الواقعي، والتطبيع النفسي، فهو تحشيد الجهود الفلسطينية والعربية والاسلامية في معركة من معارك الفتوحات الكبرى: «اجل لن تخرج اسرائيل الا اذا خضناها حربا طاحنة. لا تبقى ولا تذر، تترك بيت المقدس حجرا على حجر ،من المسجد الاقصى الى كنيسة القيامة.. واذا كان هذا هو الثمن، فان الارض الطهور في بيت المقدس ستبقى، ويومئذ سنبني عليها مسجدنا وكنيستنا... وسنعيد بناء التاريخ».

وهو الذي يقول ايضا: «لن تعود فلسطين الى اهلها بالسياسة والدعاية، ولكن بواحدة من تلك الفتوحات التاريخية التي عرفها التاريخ الانساني... اجل انه فتح قريب، ولكن بالوحدة وحدها لا بغيرها».

ألا ما اشد اشراقة النظرة التاريخية توهجا!! وما اروع هذا الحس التاريخي بالأشياء لدى الشقيري! وعلى هذا فقد كان الشقيري ناسكا متبتلا في محراب القومية العربية والوحدة العربية... لا يغادره الى غيره.. من اقليمية ضيقة.. او امية منفلشة بلا حدود!! فهو يعتبر فلسطين قلب العروبة.. ولواء الوحدة في يدها، وانه لن تتم وحدة للعرب بدونها، وان هناك ارتباطا عضويا بين الوحدة وقضية فلسطين.. ولقد آمن الشقيري بدور عظيم للشعب الفلسطيني في توحيد الامة العربية.. وانه على ارض فلسطين، كما كانت حطين وعين جالوت سيتم هذا التوحيد العظيم.. والتطهير المقدس، الذي سيجلو عن هذه الامة غبار التاريخ واوحال الزمن.. ويعود اليها جوهرها الفذ ومعدنها المقدس.

لقد كان الشقيري ، يؤمن بحتمية الوحدة العربية – وهذا ايضا من الامور التي ستعبر التاريخ من منطلقاته ومبادئه – كما كان حربا على دعاة الانفصال والتجزئة: «ان الاستعمار الغربي انزل بالامة العربية مصيبتين: الوطن اليهودي والتجزئة» ... وبينما امن ان الوحدة قوة وانتصار، فقد كان ضد النفاق القومي، وكتاباته الاخيرة تدل على شك كبير في جدوى اللقاءات العربية والتضامن العربي، وضجر مؤلم من الشعار « اي اعتداء على دولة عربية يعتبر اعتداء على الدول العربية جمعاء».

مؤسسات ... وكوادر

ومما يحسب للشقيري في خانة الايجابيات ايضا،انه اول مسؤول فلسطيني كبير

جمع حوله عددا لا بأس به من رجال العلم والفكر والرأي، من الشباب الفلسطيني المؤمن الملتزم والنظيف والواعي والجاد... لقد كان الشقيري، حتى ايامه الاخيرة يفاخر بثلاثة انجازت له ضمن منظمة التحرير الفلسطينية: جيش التحرير الفلسطيني، والصندوق القومي، ومركز الابحاث. وبالنسبة لمركز الابحاث فان الشقيري لم ينظر اليه كدار لنشر الكتب او جمع الوثائق، بل اراده تجمعا لرجال الفكر ، ندوة دائمة ومستمرة للرأي الحر، ومصنعا للبحث والباحثين، ومناخا سليما يجد فيه اهل العلم والفكر مجالا للتنفس، فالتفكير، فالنقاش، فالابداع ليستنير اصحاب القرار وصانعوه.

لقد كان الشقيري واحدا من مسؤولين كبيرين، يتابعان عمل المركز وانتاجه، ويعكفان على مطالعة منشوراته العامة واصدراته، ويطلبان من المركز الرأي وليس الفتوى، وثانيهما المرحوم الرئيس جمال عبد الناصر.

هذه بعض الجوانب... في اطلالة سريعة على دور الشقيري ومنجزاته التاريخية بمناسبة صدور هذا الكتاب عن حياته... والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هل قال الكتاب كل ما ينبغي ان يقال عن الشقيري؟.. الاجابة قطعا لا... فالتاريخ يكتب دائما من جديد... وهو نتيجة تفاعل مستمر بين المؤرخ والحقبة التي يكتب عنها.. والتاريخ دائما معاصر.. لان كل مؤرخ.. الى احفاد الاحفاد... يكتب التاريخ من وجهة نظره وبحسب المعطيات التي بين يديه.. والتي بها ومن خلالها يتفاعل مع الماضي.

على هذا فهناك تحد كبير.. وواجب كبير على جيل التسعينات من المؤرخين الفلسطينيين والعرب وغيرهم ان يضعوا الشقيري في المنظور التاريخي الذي يجب ان يكون فيه.. وما محاولة.. الدكتورة خيرية قاسمية بعد سبع سنوات على وفاة الشقيري الا بداية لمشوار طويل.. وجهد كبير على طريق التاريخ والتوثيق التاريخي.. واعطاء شخصياتنا التاريخية ما تستحقه من عناية وتقدير واعتبار..

السلام الضائع*
قصة المبادرة ...
من زيارة القدس حتى كامب ديفيد

تتحدث المذكرات «السلام الضائع» عن ميلاد المبادرة، فترى ان البذرة الخبيثة - كما تسميها- فيها اتفاقيتا الاشتباك اللتان ابرمتا بين مصر واسرائيل، ١٨ يناير ١٩٧٤ وسبتمبر ١٩٧٥، ومن المعروف ان سياسة فك الاشتباك تعتبر بداية التصدع في الموقف العربي، ذلك ان الرئيس السادات اقدم عليها دون التشاور مع بقية الدول العربية، وخاصة الجولة الثانية المعروفة باسم سيناء الثانية «التي انبتت مبادرة السادات نباتا غير حسن» .

لكن القيام بهذه المبادرة نفسها، ابتداء بزيارة القدس، فان الكاتب الوزير محمد كامل يعزوها الى اجتماع الرئيس السادات بالرئيس شاوشيسكو الذي اكد له ان مناحيم بيغن رجل قوي وانه يريد السلام... وهنا اختمرت في رأسه فكرة المبادرة، ولم يلبث ان استقر رأيه على الذهاب الى القدس وهو في الطائرة من بخارست الى ايران.

ذهب السادات فعلا الى القدس. ولكن صاحب المذكرات يبدي ارتياحا للخطاب القيم الملتزم بالموقف العربي الذي القاه السادات، والذي صيغ كما يقول بروح سياسية ومنطق سليم ومن المعروف ان هذا الخطاب تطرق للجوانب التالية: انهاء الاحتلال وتوفير الحقوق الاساسية للشعب الفلسطيني والالتزام بمبادىء الامم المتحدة من قبل الطرفين وإنهاء حالة الحرب القائمة وتأكيد قرار مجلس الأمن بعدم جواز الاستيلاء على الارض عن طريق القوة ... وبهذا ترجم السادات مبادىء القانون الدولي وقرارات الامم المتحدة التي تحكم النزاع العربي - الاسرائيلي الى صورة تنبض بالحياة والسلام والانسانية والعدالة.

لكن المؤلف يستدرك ليقول ان ما ادخله خطاب السادات على نفسه من ارتياح وطمأنينة، قد بدده رد بيغن عليه ويضيف: «اعتراني شعور بالخوف من ان تؤدي هذه

---

* تأليف محمد ابراهيم كامل.

الزيارة بل هذه المغامرة إلى هدم صرح القوة العربية والتضامن».

ومن زاوية اخرى لا يذهب الكاتب بعيدا حتى يقول انه «غاب عني وقتها ان هناك عاملا ليس في الحسبان يعمل على تقويض المبادرة، وكان هذا العامل المجهول.. أنور السادات نفسه» لماذا ؟... هذا ما سنتوصل إليه من خلال سرد قصة المبادرة... وان المبادىء المعلنة لم يكن يتم الالتزام بها في الممارسة او التطبيق.

وهنا يعلق محمد ابراهيم كامل على ذلك قائلا: «ان الخطر كان يترعرع داخلنا نحن... وكانت بذوره كامنة فينا، وغني ان الذكر ان انزلاق المبادرة الى حل منفرد سيؤدي الى وقوعها فريسة لاضمحلال، وتدهور ادبي ومادي لا قرار له».

ومهما يكن من أمر فقد كان من حصاد لقاء كامب ديفيد المبكر هذا ان عقد سايروس فانس وزير الخارجية الامريكية، مؤتمرا صحفيا هاجم فيه بشدة المستوطنات الاسرائيلية وقال «إننا اعلنا عن اعتقادنا بأن كل المستوطنات مخالفة للقانون الدولي ولهذا السبب يجب ان تزول». وكذلك أعلن فانس في المؤتمر الصحفي: «ان اراضي الضفة الغربية وغزة يجب ان تصبح الوطن القومي للفلسطينيين مع رابطة بالاردن».

ولما كان فانس من العمق والحيطة بحيث لا تخفى عليه النوايا التوسعية الاسرائيلية التي ستتم من خلال امر واقع خلال فترة الخمس سنوات الانتقالية التي سيتقرر بعدها مصير الضفة الغربية وغزة، فانه بعد المباحثات وجه للحكومة الاسرائيلية هذا السؤال: هل اسرائيل مستعدة بأن تتعهد حتى نهاية الفترة الانتقالية - الخمس سنوات - أن موضوع السيادة على الضفة الغربية وغزة سيبت فيه؟ واذا كان الرد بالايجاب فما هي الكيفية التي سيتم بها اتخاذ هذا القرار؟ وقد أيدت مصر هذه المواقف من قبل فانس والامريكيين بكل قوة.

وجاء الرد على هذا السؤال بشقيه، في زيارة مناحيم بيغن للولايات المتحدة، حيث صرح لجريدة نيويورك تايمز في ٣٠ ابريل ١٩٧٨ بتصريحات عبر فيها عن اعتقاده با «تسوية مشكلة الشرق الأوسط ستتحقق دون اقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية، وان مستقبل الضفة الغربية سيرتكز على مشروعه لمنح الحكم الذاتي وان التسوية الدائمة لن تتطلب انسحابا كاملا من الأراضي العربية ، وان اعتبار الهام هو أمن اسرائيل فوق كل شيء».

ثم لم يلبث ان وصل الرد الاسرائيلي مكتوبا: «انه بعد مرور خمس سنوات من تطبيق الحكم المحلي في «جوديا وسماريا» وقطاع غزة، فان الحكومة الاسرائيلية توافق على بحث طبيعة العلاقات المستقبلية بين الاطراف اذا اقترح ذلك اي طرف وان الموافقة على اي اتفاق يقتضي موافقة بين الأطراف انفسهم».

ويظهر ان تصريحات بيغن وجدت آذانا صاغية من قبل الرئيس الاميركي فوزير الخارجية المصرية الأسبق، يورد انه استدعى السفير الامريكي ايلتس وابلغه ان تصريحات كارتر فيها تراجع عن المواقف الامريكية التي سبق ان أعلنها... كما أبلغه بمخالفة هذه التصريحات لما تناولته المحادثات في كامب ديفيد وللسيناريو الذي اتفق عليه فيها ومؤداه أن تضع مصر مشروعها للتسوية وان تقدمه للولايات المتحدة التي ستتولى مراجعته ثم تحريره الى اسرائيل لتتولى تنفيذه.

هكذا تكررت المنافذ وجوانب التقصير في المبادرة من الجهات الثلاث بحسب الظروف... فهي مرة تأتي من قبل الرئيس السادات نفسه وميله نحو الحلول المنفردة وهي مرة تأتي من الامريكان... الذين تراجعوا عن المبادىء التي وضعوها بانفسهم... وشجبوا ايضا الحلول المنفردة... ناهيك بالاسرائيليين الذين كانوا يزدادون تعنتا مع مضي الزمن... ومع دخول التآكل على موقف الطرفين الآخرين.

لكن خللا جديدا... طرأ في هذه الآونة... فبعد أن عاد الوفد المصري الى القاهرة، دعا وزير الخارجية المصرية وزراء الخارجية العرب إلى القاهرة فلبى عدد منهم، وهنا على غير رغبة من محمد ابراهيم كامل، استقبل الرئيس المصري عيزرا وايزمان وزير الدفاع الاسرائيلي، الذي كان السادات يستلطفه أكثر من غيره من الاسرائيليين الذين تعامل معهم... ولنترك لوايزمان نفسه يتحدث عن بعض الوقائع لهذه الزيارة: «تحت شجرة السكامور شعرت مع الرئيس السادات بمزاج افضل... فمثلا مكان الرئيس الرئيس السادات غير مهتم بدوله فلسطينية وكان مستعدا لان يترك مستوطناتنا في الضفة الغربية مكانها».. وطبعا يأسف وايزمان فيما بعد لتراجع السادات، عما وعده به، بأن تبقى المستوطنات قائمة.. ويعلن على التحول المفاجيء في موقف السادات بأنه كان مؤسفا للغاية.. ويبرر ذلك بما يتهمه به نقاده من انه لا يثبت على حال... أما كامل فيعقب على ذلك بقوله: «لاح لي السادات في دور جديد متقمصا شخصية الدكتور جيكل والمستر هايد ام انه لم يكن له دور».

ويقودنا هذا الموقف من السادات الى ذكر سبب آخر ربما كان اكثر أهمية في ضياع المبادرة، يبرزه أيضا الوزير محمد كامل وهو بصدد ذكر العوامل التي عملت على تخريبها ذلكم ما يدونه على هذه الشاكلة «ومع مرور الوقت وتوالي الاحداث وصلت الى يقين بأن حصيلة تلك السلسلة الطويلة من اللقاءات أدت الى تآكل مركز السادات وتدهوره حتى انه عندما عبر بوابة كامب ديفيد كان مفلسا عاريا مكبلا لا يملك حراكا بسبب ما انفلت به لسانه داخل الغرف المغلقة من تنازلات وتجاوزات وتعهدات الواحد بعد الاخر، وفي لقاء وراء لقاء».

اجتماعات ليدز

ويلاحظ ابراهيم كامل انه لا اسرائيل ولا الولايات المتحدة راغبين جديا في تنفيذ السيناريو المتفق عليه.. اما بالنسبة لاسرائيل فمعروفة فلسفتها التوسعية واستراتيجيتها المبنية عليها .. وبالنسبة للولايات المتحدة فقد تعللت بأسباب مختلفة.. فبينما كان كامل في الولايات المتحدة، ابريل ١٩٧٨، تحدث مع فانس في المشروع المصري والمبني على انسحاب اسرائيل وخضوع ادارة الضفة الغربية لاشراف الاردن وقطاع غزة لاشراف مصر.. وكانت ملاحظات الطرف الامريكي الاساسية ان المشروع لا يتضمن تفصيلات كافية فيما يتعلق باجراءات الامن... وقد رجا فانس المصريين اذا استطاعو اضافة مثل هذه التفصيلات حيث ان اسرائيل تتعلل دائما بموضوع الامن وقد وعده كامل ببحث الامر عند عودته للقاهرة.

لكن مع عودة محمد كامل الى القاهرة، واجهه السادات بفكره اجتماع جديد لوزاء خارجية الدول الثلاث ذات العلاقة بمبادرة السلام: الولايات المتحدة ومصر واسرائيل .. لكن كامل أبدى رغبته للسادات بالتوقف عن اللقاءات والاجتماعات ما دامت الامور قد وصلت الى هذا الحد .. لا سيما وانه لم يتم – حتى ذلك الوقت – أي خطوة على طريق تنفيذ الانسحاب من الاراضي المحتلة ... وفوجيء ابراهيم كامل عندما تلقى هذا الجواب من السادات: لقد أبلغت الرئيس كارتر موافقتي على اجتماع الوزراء الثلاثة وهي تنازل من اجل خاطره Aspecial Favour to Carter واكدت عليه ان ذلك يتعلق باجتماع واحد فقط فوافق على ذلك .. ووافق على عقد الاجتماع في لندن.

ولا يستبعد محمد ابراهيم كامل ان الباعث على هذا الاجتماع الثلاثي الذي انعقد في ليدز في المملكة المتحدة، كان هو حدوث تنسيق بين الولايات المتحدة واسرائيل

لضمان استمرار المفاوضات المباشرة بين مصر واسرائيل رغم رفض الاخيرة التحرك، ورغم كونها مصممة على مشروع الحكم المحلي الذي قدمته في الاسماعيلية والذي رفضه المصريون .

وكانت جولة المفاوضات بين جدران قلعة ليدز، جولة تجلى فيها الدفاع البطولي عن الحقوق العربية، وكما يصفها كامل فقد كانت حلقة مشرفة من حلقات نضال وزارة الخارجية المصرية المشرفة.. وكان بطل المحادثات على الجبهتين العربية والمصرية والاسرائيلية هو اسامة الباز.. مع هذا فان كل هذا الدفاع المجيد لم يفلح في زحزحة دايان وزير الخارجية الاسرائيلي عن طروحاته فقد أصر هذا على أن اسرائيل مستعدة لمناقشة اي افكار لتحقيق حل وسط بالنسبة لاراضي الضفة الغربية على نمط مشروع آلون وهناك قال له محمد كامل: ما هو هدفكم: الأمن أو التوسع أم كلاهما معا؟

وأصر دايان على ان ينكأ الجرح العربي اكثر من ذلك عندما اضاف: أنه من الضروري تواجد قوات اسرائيلية في الضفة في اطار ترتيبات للامن وبدون ذلك لا تعتبر اسرائيل نفسها آمنة.

ومع كل هذا فإن كامل يعتبر مؤتمر ليدز ناجحا، ذلك ان الدبلوماسية المصرية تمكنت بذكاء أصيل من تعرية الموقف الاسرائيلي وفضح النزعات التوسعية الاستيطانية الاسرائيلية وكما يحدد كامل نفسه:

- استطعنا تفنيد المشروع الاسرائيلي الخاص بالحكم الذاتي ومن ناحية اخرى ان نجعل المشروع المصري موضوع الحديث .
- بعد محاولة دايان اللف والدوران اضطر في النهاية تحت الضغط المصري وأمام الجانب الامريكي إلى الافصاح عن نياتهم الحقيقية بالنسبة لاستمرار الاحتلال والرغبة في التوسع، ورفض الاعتراف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، وأصبح الجانب الامريكي شاهدا مباشرا على ذلك.

ولقد أغاظ هذا الموقف الواضح من قبل المصريين، الجانب الاسرائيلي بدرجة كبيرة.. ففي حديث مع « أس .بي. أس» اتهم بيغن مصر بانها رفضت مبدأ حل وسط اقليمي بشأن الضفة وغزة في مؤتمر ليدز.. وقال: ان الوزير المصري أجاب ثلاث مرات بـ «لا» على سؤال موشي دايان قال: ما اذا كانت مصر على استعداد لبحث هذه التنازلات

الاقليمية.

وقال بيغن في مناسبة اخرى: «ولا حبة رمل دون مقابل» .. اما دايان فقد قال: انهم لا يستطيعون تقديم هدايا للعرب بمناسبة عيد الميلاد – الكريسماس بدون مقابل. وعلى اية حال فقد استمر الموقف المصري على تأكيده على معادلتين اساسيتين:

١ – الانسحاب + الامن = السلام = علاقات حسن الجوار .

٢ – ان الارض والسيادة يجب ان تخرج عن اطار المساومة وهم – اي الاسرائيليين – يريدون ان يتحولوا الى دولة كبرى على حساب ارضنا .

ولقد كرر السادات في اكثر من مرة ، مشيرا بالطبع الى الاسرائيليين: انهم لصوص.. اما محمد كامل فقد قال بصراحة :ليشهد العالم كله.

على هذا فقد اعتبر محمد كامل مؤتمر ليدز مفترق طرق وانه لابد من العودة الى تطبيق استراتيجية موحدة واشار بوجه خاص الى استراتيجية الرباط: الحل السلمي والا فالحل العسكري.

أما السادات فقد استدعى السفير الامريكي في القاهرة ايلتس وقال له: «معنى هذا اننا وصلنا الى الى نقطة تحول . فاما ان تستمر عملية السلام الحالية بعد ان توضع لها الضوابط، ويتحقق السلام القائم على العدل، او ان نترك لاسرائيل فرصة الكسب بالنقاط لانهم في الحقيقة ليس لهم اي قضية يمكن الدفاع عنها».

لم يلبث السادات ان استقبل بيغن في الاسماعيلية، فقد بادر بيغن الى رد زيارة السادات سيراً على طريق التطبيع وكسر الحواجز النفسية... واستكمالا لآلية تنفيذ المبادرة باجراء المفاوضات اللازمة.. وهنا عرف المصريون بعضا من أفكار بيغن، او انهم ادركو جشعه الشديد ورغبته في الاستحواذ على الاراضي العربية واستمرار السيطرة عليها في سيناء والضفة الغربية وغزة، ففي لقاء الاسماعيلية، وكما يذكر محمد ابراهيم كامل، شرع بيغن يقرأ فقرات من كتاب لأحد فقهاء القانون الدولي التي تؤيد حق الدول في الاحتفاظ بالاراضي المحتلة، اذا كان احتلالها نتيجة لحرب دفاعية رغم انفها.

ومن ثم ينطلق ليقول: ان الفلسطينيين سيتمتعون لأول مرة في تاريخهم بالحكم الاداري ، بعد قرون من التحكم فيهم وهذا يؤدي بالتالي أن ينعم « اليهود الفلسطينيون» بالامن، وهنا يرد عليه الرئيس السادات موضحا ان لمصر التزامات تاريخية بالنسبة للعالم

العربي، وبالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة، وعلى هذا فانه يجب ان تقوم الدولة الفلسطينية.

وفي المؤتمر الصحفي الذي عقده الطرفان، ظهر البون شاسعا بين توجهات وغايات كل من الطرفين في عملية السلام... وهكذا فشلت مباحثات الاسماعيلية ولم يتحرك السلام قيد انملة الى الامام .

وهنا، تفتقت ذهنية بيغن عن خطة شريرة، تخرجه من مأزق المبادرة وتبعد الكرة عن شبكته، وذلك من خلال المنعطفات التالية:

- عزل مصر عربيا .

- كسب الوقت وتمييع المبادرة وتفريغها من مضمونها وجر مصر الى متاهات التفاصيل وإلى جزئيات وقضايا فرعية.

ولقد ساعد في تحقيق الغاية الاولى ان السادات وقع تحت هاجس ضياع قوة تفجير المفاجأة في المبادرة، وهي التي سيطرت عليه من الرأس الى اخمص القدم، على الشعور واللاشعور، بحيث لم يعد يطيق صبرا على تأجيل تنفيذها.. وخشي ان هو فاتح الدول العربية في الأمر أن تذبل وان تتبدد بين يديه، نتيجة اختلافات وتعارض وجهات النظر بينها، وتفقد بذلك بريقها وقوة تفجيرها، واخذ اسرائيل والعالم على غرّة.. كل هذا وسط ذلك المناخ الدولي الطيب الذي أوجدته المبادرة ، وانها خلقت تفاعلات ذات قوة دفع ذاتيه هائلة لا تقف عند حد.

لقاء القدس واللاءات الثلاث

تقرر في الاسماعيلية ان تتشكل لجنتان مشتركتان من كل من المصريين والاسرائيليين سياسية وعسكرية تجتمع اللجنة السياسية في القدس، واللجنة العسكرية في مصر.. ومن هنا فقد طار محمد كامل الى القدس وهنا تمخضت اللقاءات عن معطيات اخرى... لم تزد إلا في قلق محمد كامل على مصير المبادرة.. كما زادت في تأكده من انطباعات الاولى عن جشع «الاسرائيليين» وأطماعهم التي لا تتوقف عند حد معين:

- ان لدى الاسرائيليين هدفا رئيسيا هم وراءه بقوة الا وهو الاستيلاء على ما زيفوا تسميته «جوديا وسماريا» اى الضفة الغربية.

– ان بيغن يريد حلا وسطا مع المصريين بالنسبة لسيناء.. بينما يريد استمرار حكم الضفة الغربية وغزة.. بينما كان الموقف المصري يقوم على ان اتفاقية سيناء هي نموذج لاتفاقيات مماثلة تعقد مع الاردن بشأن الضفة الغربية ومع سوريا بشأن مرتفعات الجولان.

ولم يكن هذا هو الذي أوقف هذه اللقاءات في القدس بل خطاب بيغن الصارخ التحدي.. ذلك ان بيغن القى خطابا في فندق الملك داود، في دعوة اقامها للوفد المصري وقال: «كيف يجرؤ هذا القادم من مصر أن يطالب بأن نعيد تقسيم عاصمتنا القدس بعد ان توحدت ؟ ابرضى ان اذهب الى القاهرة واطالبه بتقسيمها؟ ويطالب بانسحابنا الى حدود ما قبل ١٩٦٧، انسي اننا كنا ندافع عن أرواحنا واولادنا عند حربهم الهجومية.. والأكثر من ذلك يطالب بحق تقرير المصير للفلسطينيين والعرب لماذا؟ لينشيء دولة ارهابية ليذبح نساؤنا واطفالنا؟.. انني أقولها بصراحة عالية: لا لتقسيم القدس، لا للانسحاب الى حدود ١٩٦٧، لا لحق تقرير المصير.

ورد الوفد المصري عمليا على هذا الخطاب بالعودة الى مصر.. وهكذا تسجل الفشل الثاني للقاءات المصرية – الاسرائيلية بعد لقاء الاسماعيلية.

كامب ديفد فبراير ١٩٨٢

طار محمد كامل، مع رئيسه السادات هذه المرة لكامب ديفد المنتجع الصيفي للرئيس الامريكي.. وذلك من أجل التداول معه وأعوانه، وهنا يظهر لكامل بوادر جديدة لتآكل المبادرة... فقد لاحظ ان بريجنسكي مستشار الامن القومي للرئيس كارتر يحضر مع سيد مرعي رئيس مجلس الشعب المصري وأحد رجال السادات المقربين ، للتوصل الى اتفاقية خاصة بسيناء واعلان مبادئها وأسسها قبل الاعلان عن مبادىء التسوية الشاملة.

فعندما علق احد الحاضرين من الوفد المصري قائلا: ان الشيء الذي يثير معارضة المصريين، وهو أن عبارة تقرير المصير في الاتفاقية، قد وضعت بشكل غامض وغير مباشر... قال الرئيس السادات: لم يكن ذلك بالامكان... فقد قال الرئيس كارتر ان هذه العبارة – لو وضعت – ستفقده كرسي الرئاسة It would cost my chair انفجر محمد ابراهيم – كما تذكره المذكرات – قائلا بصوت عال منفعل: «هذا هو اقوى رئيس دولة في العالم ؟ هذا هو القديس الذي كان يدعي ان الدفاع عن حقوق الانسان والمبادىء والقيم هو محور سياسته، انه ابن كذا وكذا... أمن اجل ان يظل

رئيسا لامريكا ثماني سنوات بدلا من أربع يضحي بمصير شعب باكمله؟ يا له من تافه حقير».

وهكذا يتوازى تقييم كامل للشخصيات مع مواقفها في كامب ديفد سكوتا على الظلم وتمريرا للباطل على حساب الحق الواضح البين الوضوح... وهكذا تتساقط قيمة واهمية هذه الشخصيات في نظره، كما تتساقط اوراق الخريف ..بالنظر لتنكبها عن ميزان الحق،، وتراجعها عن مبادىء القانون الدولي.. الذي طالما تباهت بالدفاع عنه، وبشرت به.. كما جرى في صيغة أسوان والسناريو الامريكي.. مما سنوضحة فيما سيأتي.. ولكن هيهات.. انه الصلف اليهودي.. والعبودية الامريكية لهذا الصلف المتغطرس التي لا تستثني صغيرا ولا كبيرا.

شخصيات عربية

لا تخلو المذكرات من اشارات الى شخصية عربية تتقاطع مواقفها مع المواقف الواردة في مسيرة احداث المذكرات وممارسات صاحبها الذي كان ينطلق من مبادىء المشاركة العربية الكاملة في الحلين السلمي او العسكري، ويعتبر ان اساس البلاء ورأس الداء هو الانفراد بالحل.. ولكن على ما يظهر فان الحصول على اجماع عربي... او حتى مشاركة عربية كانت مستحيلة.. لاسباب كثيرة... تتعلق بالرئيس السادات كما تتعلق بالرفض الاسرائيلي في الانسحاب.. والسماح بممارسة الحقوق الفلسطينية... فضلا عن الاستراتيجية الامريكية التي على ما يظهر لم تكن جادة في هذه المرحلة في المشاركة العربية.. اكتفاء، مرحليا، بمصر .. حتى تنضج ثمرة المشاركة العربية في الوقت المناسب.

الملك الحسن الثاني:

تتحدث المذكرات عن الملك الحسن الثاني فتصفه بانه رجل ذكي، ولكنه في تقدير صاحب المذكرات، يشعر بذاته، كيف لا وهو تحيط به هالة من القدسية لانه ينتسب في اصوله الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم...

الامير سعود الفيصل

وترسم المذكرات صورة مشرقة لوزير الخارجية السعودية الامير سعود الفيصل، الذي التقى مع محمد كامل على ان قرارات مؤتمر الرباط في عمل عربي مشترك سلماً او

حربا، هو المخرج والمنفذ من دوامة كامب ديفد.. وعلى اية حال فان كامل يذكر ان سعود الفيصل «شاب وسيم.. متأصلة فيه صفات الارستقراطية العريقة، ذكي ذو ثقافة عالية ونسب كريم.. وكنت اشعر وانا ألقاه لاول مرة أني أعرفه من قبل لاني كنت اكن اعجابا وتقديرا كبيرين لوالده».

الملك حسين

اما الملك حسين فهو يتحدث عنه حديثا متعاطفا ايضا فيقول: «كنت ومازلت اكن للملك حسين اعجابا وتقديرا خاصين، ولا شك انه شخصية متميزة بين الملوك والرؤساء العرب.. وقد تولى السلطة في ظروف صعبة .

وهو يتميز بالشجاعة والذكاء والكياسة والبلاغة ويتمتع بشخصية جذابة ..وقد مرت به منذ توليه الملك سلسلة من المحن والتجارب الخاصة والعامة صمد لها فشحذت ارادته واكسبته صلابة وزادته حكمة وجعلت منه سياسيا محلكا».

مضر بدران

اما مضر بدران رئيس الحكومة الاردنية، فهو مثال ممتاز على الاهتمام الرسمي الاردني بالضفة الغربية: شعرت في حديثي مع مضر بدران بالذات، والذي دام ساعات، انه متعمق في دراسة جغرافية الضفة ويعرف كل تبه او تلة، كل حقل او بستان، وكل قرية وكل كفر، يعرف أصل عائلاتها واصهارهم، وما يملكون وكيف يرزقون.. ومن يتعامل مع اسرائيل ومن لا يفعل.

الشخصيات الاسرائيلية:

يتحدث الكتاب عن عدد من الشخصيات الاسرائيلية، والتي كان لها دورا في المفاوضات ومن بين هؤلاء بيغن ودايان وعيزرا وايزمان وشمعون بيريز وغيرهم .. ولكن الشخصية التي تحظى بالتركيز الاكبر، هي شخصية مناحيم بيغن التي تبرز في الكتاب، وهي تتمتع بقسط وافر من الصفات السلبية بكل المقاييس.. فمحمد كامل يذكر في مذكراته عن هذه الشخصية، ان الانطباع المبدئي عنها في نفسه كان انطباعا سلبيا، وهو يصفه بانه كان متحجر القلب، متعصبا مغرورا، لا يأبه بما يحدث للعالم بأسره طالما هو يحصل على ما يريده.. ولم يكن ماضيه الارهابي الدموي خافيا على احد ..ولكنه من

ناحية اخرى، كان ذكيا واسع الدهاء والحيلة، طليق اللسان، سريع البديهة صورة معاكسة لأنور السادات، الذي كان متقمصا دور «الرجل الكبير» لا يحفل بالتفاصيل تملؤه الثقة بمبادرته التي بناها على أسس الشجاعة الانسانية والعدالة استنادا الى القانون العام..

حتى اذا اصطدم محمد ابرهيم كامل بتعنت بيغن الى درجة الطاغوت والجبروت تراه يذكر في مذكراته: انه لمن مآسي القدر ان يختار كائن حي من الحفريات القديمة يدعي مناحيم بيغن ليكون رئيسا لوزراء اسرائيل في تلك اللحظة «السلام»... وهنا يضيف شيئا آخر الى خلفياته ، فيذكر ايضا انه ذلك الشخص الذي قدم الى فلسطين من بولندة، وأمضى حياته ليقيم دولة عنصرية، ويذيق أهل البلاد الأصليين في فلسطين العذاب فيسفك دماءهم ويطردهم من ديارهم وأوطانهم ليستورد اليهود من معظم انحاء العالم ليحلوا محلهم، بيغن رئيس حزب حيروت الذي ينادي باسرائيل الكبرى..

ثم انه لا يلبث ان يذكر ما يؤكد انطباعاته هذه في امكنة اخرى من الكتاب... فهو يقول مثلا انه في اجتماعات الاسماعيلية تولدت لديه قناعة بأن بيغن :« ثعبان غادر وهو كذاب مزيف للتاريخ والوقائع» هذا النموذج الذي كان يقف امام الوفد المصري.. هذا النموذج بكل ما يحمل من نقائص ونقائض، تعامل معه السادات، كما يروي كامل، تعاملا آخر.. عامله برقة ومجاملة كأنه جنتلمان. ..وربما كان السادات يفعل هذا مع بيغن سياسة وكياسة ودبلوماسية.. ولكن كامل، الذي شعر، وحتى الأعماق بأن أمثال بيغن حالة ميئوس منها.. اعتبر ان هذا الاسلوب لا يجدي معهم.. فبيغن واحزابه طينة اخرى من البشر ويجب ان يتعامل معهم الانسان.. بحيث يضعهم في المكان الذي يستحقونه.. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا.. اذا كان هذا ممكنا في الحياة العادية.. هل هو ممكن في المداولات الدبلوماسية؟ .

على أية حال، يظل كامل على رأيه في بيغن، انه لن يأتي بخير.. بينما تتفاعل المفاوضات، وتتكرر الاصطدامات بين المطالبة المصرية بالانسحاب من سيناء والضفة الغربية وغزة من جهة، ويزداد التشدد والتمسك الى درجة العذاب من قبل الاسرائيليين برئاسة بيغن، المايسترو لهذه الجوقة العجيبة من المفاوضين، من جهة اخرى.. ويكون لهذا أصداء على مستوى الاعلام المصري والعربي والعالمي..وهنا يكتب مصطفى أمين في الصحافة المصرية ويشبه مناحيم بيغن بشيلوك في رواية تاجر البندقية...وكلنا يعلم كم هي هذه الشخصية كريهة.. جشعة.. محبة لامتصاص الدماء... وكيف انها ظلت

تطالب برطل لحم من الضحية التي وقعت في شباكها واقترضت منها بعض المال.. أجل لقد شبه مصطفى أمين بيغن بشيلوك اليهودي اللعين الذي يضرب مثلاً على الجشع الفظيع والبخل الشنيع في الادب العالمي اجمع.

على ان محمد ابراهيم كامل يسخر بمرارة من ان شيلوك القرن العشرين هذا، هذا الكائن المسخ الخارج لتوه من العصر الحجري والذي يصنفه بين الحفريات، يمنح جائزة السلام.. وهنا يكتفي كامل بالتعليق قائلاً: يا لسخرية القدر!

ويجسد بيغن العناء الصهيوني في اجلى معانيه، وهو الذي لا يستطيع احد تجاوزه، في مؤتمر ليدز، عندما يصطدم المصريون بحقيقة التوسع الاسرائيلي والرغبة في سرقة الارض عارية كما خلقها الله، هنا يضيء السادات جزءاً اخر من شخصية بيغن حيث يقول لفالدهايم الذي كان يشغل منصب الامين العام للامم المتحدة انذاك: «ان موقف بيغن متشدد جدا. وقد ذكر لي -كاهان- انه رجل مجنون.. وكان ناحوم غولدمان قد قال لي نفس الشيء.. ثم ارسل لي بعد ذلك مبعوثاً يحثني على الصبر ومواصلة المباحثات..ولكن بيغن يثير دائماً صعوبات».

وحقيقة الامر، ومن خلال هذه الشهادات وغيرها في بيغن وغيره..يدرك القارىء لكامل في مذكراته الكاشفة، كم هو التناقض كبيراً بين الاطراف المتفاوضة ارضاً وسماء.. أقصى اليمين واقصى اليسار.. يتقابلان ليتفقا ولا أرض مشتركة بينهما، لا من ناحية مناحيم بيغن ولا أهداف ولا غايات... فانظر عماذا ستتمخض من نتائج.. مما سنتطرق له عند الحديث عن رحلة العذاب الطويلة: رحلة المفاوضات وبخاصة مفاوضات كامب ديفد.. فيما سيأتي..

على أن السادات يستدرك على حديثه عن بيغن وربما ليبرز بشاعة موقف بيغن، وتعقيد شخصيته، عندما يتحدث، والكلام لا يزال موجها الى فالدهايم عن اثنين آخرين من الشخصيات الصهيونية فيقول: «انت ما زلت معجباً بناميش يعني -عيزرا وايزمان - لانه يقدر اهمية السلام... ولم اجد أي خلاف بيني وبين شمعون بيريز خاصة بالنسة للقدس والضفة الغربية، وهي اصعب المسائل بالنسبة لاسرائيل، اراؤنا متفقة معا، شمعون بيريز وانا».

ويبلغ السيل الزبى بالسادات، كما يقال، عندما يرى حلمه في تحقيق السلام ينهار ويتقوض، أمام مطامع بيغن وجشعه الفظيع، ورغبته في الاستحواذ على الاراضي أكثر

من شيء اخر...وهنا يشبه محمد كامل هذه الحالة بين حلم رجل يريد صناعة السلام... ورجل آخر يريد أن ينهب الارض بهذا الوصف يغدقه على بيغن وهو به جدير: «على أحلام السادات سيقيم، مناحيم بيغن السمسار وتاجر العبيد الغريب القادم من بعيد حانوتا صغيرا لتلك الرهونات والمقايضة واستبدال العقارات والبيع والشراء، وبضاعته رمال سيناء وجبالها، وربوع فلسطين وتلالها ومرتفعات الجولان ووديانها، كل ذلك يطرح للبيع والمبادلة والربا الفاحش والتقسيط غير المريح وبالقطعة والمتر وبالقصة والرطل والاوقية بالنكلة والمليم».

انها في الحقيقة مأساة اصطدام انسان مناضل يريد استرجاع ارضه مع شخص آخر يصر على الابقاء عليها، ولعل هذه نقطة الضعف الكبرى في التكوين الصهيوني، والذي منذ جاء الى ارضنا كان شعاره: بقرة اخرى، فدان آخر، هذا التكوين الصهيوني الذي وجد تجسيداً حيا له في بيغن.. الذي يعود السادات لوصفه في موقع آخر من المذكرات كما يورد محمد ابراهيم كامل، فيشبهه بلصوص الماشية في مصر يرفض اعادة الارض التي سرقها الا اذا استولى على جزء منها، كما يفعل لصوص الماشية حينما يرفضون ردها الى صاحبها إلا اذا تقاضوا ثلث او نصف قيمتها.. وتأمل هذه الشهادات.. ووضعها في منظورها التاريخي عن المفاوض الاول الصهيوني...يدرك كم كانت خاسرة صفقة المفاوضات معه.. فمثل هذه البدايات من المستحيل أن تأتي بنتائج حسنة.. ولا حتى مقبولة.. دعونا لا نستعجل الوصول الى النتائج... ونجعل الحصان يشرب قبل الوصول الى الماء..

وعندما يتمادي السادات في رحلة الخسارة، رحلة التنازلات التي سبق الاشارة اليها... ووجد انه من المستحيل ان يتراجع، لم يعد بامكانه الا القول بحسرة: إننا نتعامل مع أحط عدو.. لقد عذب اليهود نبيهم موسى.. انني أشفق على الرئيس كارتر من التعامل مع بيغن ذي العقلية المحنطة.

وفي الليلة التي أصبح يطلق عليها عادة ليلة مناحيم بيغن، كما يطلق عادة ليلة الخناجر على الليلة التي استولى فيها هتلر على السلطة في ألمانيا، يصل الامر ببيغن بالاقدام على تهديد كارتر رئيس الولايات المتحدة تحت طائلة دعوة كارتر نفسه ألا يهدده.. وعلى هذا فان السادات يعقب على هذه الحالة التي هيمن فيها بيغن على الجو جميعه: ان التفاهم مع بيغن من رابع المستحيلات وانه على هذا لن يوقع المعاهدة مع الرئيس كارتر «حتى لا يصبح ما أوقع عليه أساساً للتفاوض فيما بعد يخضع بدوره للمساومة». انه

وصف دقيق. لنفسية بيغن... فمعه لن تصل الى النهاية الحاسمة مهما اتفقت معه على شيء...سيعود لنقضه وتجاوزه واخضاعه للتفاوض من جديد... في حلقة مفرغة... لا تنتهي.. وهذا ما ستثبته الوقائع..والاحداث..

دايان:

أما دايان، الذي هو مهندس الايام والسنوات الاولى من الاحتلال وواضع سياسة القبضة الحديدية التي تمتزج باللبرالية الظاهرة... وما أطلق عليه سياسة العصا والجزرة أو الحنفية الساخنة والحنفية الباردة... دايان رب السياسة الواقعية القائمة على فهم معين قوامه عدم جدوى «السلام» والعمل على ترسيخ سياسة طويلة المدى مبنية على التعامل مع الواقع وتطويره لمصلحة اسرائيل من جميع النواحي.. وهو ايضا مهندس سياسة الجسور المفتوحة، بمعنى فتح الجسور بين فلسطين بمجملها مع الاردن..او بين العرب واليهود الاسرائيليين بحيث تصبح الضفة الغربية وغزة مختبرا للعلاقات العربية اليهودية والتعايش والتطبيع بين العرب واليهود مما هو في حد ذاته تطبيق لكامب ديفد قبل معاهدة كام ديفد الرسمية بفترة طويلة...وقد أتاحت سياسة الابواب المفتوحة هذه وانهيار الخط الاخضر، للقوى العاملة في الضفة الغربية وغزة العمل في اسرائيل وتنامي عدد العاملين مع الزمن حتى وصل عشرات الآلاف، مما يكرس سياسة الاحتواء الاسرائيلية..كما ان سياسة الأبواب المفتوحة هذه تصدت الى كسر حواجز الكراهية بين الشعبين العربي واليهودي.

هذه هي السياسة التي رسمها دايان من أجل استدامة الاحتلال الاسرائيلي قبل ان يلتقي بمحمد ابراهيم كامل... والسادات في الاسماعيلية ومن ثم في الولايات المتحدة، وبعدئذ في لندن ثم عودا الى كامب ديفد في المرحلة الاخيرة... حتى اذا التقاه محمد كامل في أول مرة كان انطباعه المبدئي عنه، كما وصفه: أنه ثعبان ماكر...ولا يتسم حديثه بالجمود والتحجر مثل مناحيم بيغن بل أنه «كان يلف ويدور والمستمع اليه يكاد يحس بأنه مرن قابل للتفاهم، ولكنه في الحقيقة يريد توسيع رقعة اسرائيل ويمارس تحقيق ذلك بيد حديدية».

ويؤكد محمد كامل بأن دايان هو نفسه صاحب نظرية تعليق السيادة على الضفة الغربية وغزة، دون المطالبة بها فوراً على نحو ما يرغب بيغن، حتي يتيسر للاسرائيليين الاستفادة من الوقت في احداث تغيرات على الارض تؤدي في النهاية الى تكريس

احتلالها.

ويصف كامل، بالاضافة الى ما مر، بعضا من صفات دايان الاخرى: انه منفر الصوت، بادىء الهدوء ويتكلم من وراء قناع، مغرما بالظهور، يتحرق شوقاً الى ان تتصدر صورته واحاديثه وأخباره الانباء...وقد كان تحوله من حزب العمل وانضمامه الى وزراء مناحيم بيغن قد أثر على منزلته بدوره لدى اسرائيليين، فكان يعمل لاثبات نفسه من جديد.

عيزرا وايزمان:

اما انطباع الكاتب عن شخصية اخرى، اسرائيلية فهو على النقيض من انطباعه عن الشخصيتين السابقتين تلكم هي شخصية عيزرا وايزمان، الذي يصفه بانه رجل طموح، يميل إلى مناقشة الامور بصراحة دون لف ودوران، وهو بشوش الوجه، مرح الشخصية، شأن الطيارين بوجه عام.. ويضيف الى ذلك ان شعوره كان ان وايزمان اخذ مبادرة السادات مأخذاً جديا، وانه أدرك ما للسلام من ثمن...وهذا الانطباع يدركه من أتيح له الاطلاع على مذكرات وايزمان عن هذه الفترة والذي أسماه «المعركة من أجل السلام» The Battel For Peace حيث يظهر انه من الحمائم الاسرائيليين، الذين يحبذون السلام، ويسيرون اليه سيراً معيناً، بعكس موقف بيغن الذي يتسم بالجمود وموقف دايان الذي يتسم بالنفاق.

انه يصف طبيعة وايزمان بأنها طبيعة مفتوحة على عكس الطبيعة الاسرائيلية المغلقة، الحذرة، وربما كان لخلفيته، وانه قضى فترة من شبابه في مصر، ومعرفته بالسيكولوجية العربية ما أثر في سلوكه ومما ترك من انطباع.. ومع هذا فإن الكاتب لا يقع ضحية التبسيط وحسن الظن في الحكم على عيزرا وايزمان، الذي سيظل رغم كل شيء صهيونيا يريد ان يحقق التوسع والاستيطان... ولذلك فهو - عيزرا وايزمان - لا يحبذ الانسحاب الكامل... بل يحاول ان يقنع السادات الذي اقام معه جسوراً خاصة... بالابقاء على السيادة الاسرائيلية في الضفة وغزة... وكذلك بعدم وقف الاستيطان واستمراره... ومن هنا فان كامل يحذر من الخطر المترتب على ان يقضي الرئيس السادات معه الساعات الطوال.. وما ينجم عن ذلك من التقاطه اسرار السياسة المصرية وتسريب هذه الاسرار لكومبيوتر الدوائر السرية الاسرائيلية..ومهما يكن من أمر فان وايزمان لعب دوراً كبيراً في صناعة معاهدة كامب ديفد بطريقة مباشرة وغير مباشرة...

وكان دوره كبيراً على الرئيس السادات، وربما أكثر من أي عضو آخر في الوزارة الاسرائيلية أو الوفد الاسرائيلي.

شخصيات أمريكية

سايروس فانس:

اما بالنسبة للشخصيات الامريكية، فان محمد كامل في كتابه الواسع الشامل، الذي تطرق الى شخصيات وابعادها الحياتية وجوانبها السيكولوجية ليلقي ضوءاً على ممارستها ومواقفها وتصرفاتها وقراراتها السياسية يقدم لنا أول ما يقدم من الشخصيات الامريكية شخصية وزير الخارجية سايروس فانس، الذي يحس بأنه شخص شريف نظيف ذكي، وان حديثه واضح لا التواء فيه، وان التفاهم معه سهل.. وعندما قاس هذه الصفات على الايام التي تلت والمعاملة الطويلة التي تمت، وجد انها صمدت... وظل انطباعه عنه ثابتا...ولذلك فهو لا يزال يكن له كل الود والصداقة.. ومع ذلك فقد جرف تيار الاستراتيجية الامريكية فانس فيمن جرف... ووجد نفسه في النهاية يمرر معاهدة كامب ديفد على ما فيها من ظلم صارحه به محمد كامل.

جيمي كارتر:

كما ان انطباعه عن الرئيس كارتر في بداياته كان انطباعاً مشابها: كانت المرة الاولى التي اجتمع فيها بالرئيس كارتر، وكنت أراقبه عن كثب وأحاول تعرف ملامح شخصيته وفكره... والحق ان انطباعي كان مشجعاً... فقد كان يبدو صادقاً، وكان اقتناعه بالانسحاب الاسرائيلي وفقا لقرار ٢٤٢ يشمل كل الاراضي ..كما ان التسوية يجب ان تتضمن الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني «ومشاركته» في تقرير المصير كما كان موقفه في ادانة المستوطنات صلب.. وهي في تقديري مفتاح وأداة التوسع الاسرائيلي... وكان يصف التفاوض مع الاسرائيليين بأنه مثبط للعزيمة: Frustrating.

بالنظر لهذه الاسباب، فان مقابلة كارتر كانت تدعو للتفاؤل.. ولعل ما عزز هذا التفاؤل، اكثر ما عززه، انه كان أول رئيس امريكي نادى بحق الفلسطينيين في وطن قومي، وانه اعلن ان موضوع حقوق الانسان هو من محاور سياسته الرئيسية.

على انه يستدرك فيحذر من انه هذه النظرة الاولى للرئيس كارتر كانت مضللة،

كما اثبتت الأيام، ففي معرض المقارنة بين الرئيس كارتر والرئيس وايزمان... ومثل ذلك المقارنة بين الرئيس السادات والرئيس عبد الناصر يقول ان معدن الرجال يختلف... فلم يكن كارتر في صلابة ايزنهاور، كما لم يكن السادات في صلابة عبد الناصر..كان كلاهما كارتر والسادات - لاحظ الربط والمقارنة - يرتدي قناعاً رقيقا من الصلب يغطي ظاهره ولكن لا ينفذ الى باطنه..وهو يعزو ضعف كل منهما الى الحرص على مصلحته الشخصية اولاً... ويستشهد بالمثل الذي يقول: «اذل الحرص اعناق الرجال».

وكما ثار على السادات في مرحلة من مراحل المفاوضات، ووصفه بفيض من الصفات السلبية، التي دمرت صورته في المذكرات عندما قام بمذبحة التنازلات او سكت عليها.. فانه يثور على نفس الشاكلة على الرئيس كارتر، لتنازله المشابه لبيغن...

ومهما يكن من أمر فإن محمد ابراهيم كامل يحدثنا في مذكراته (السلام الضائع) عن بقية قصة المبادرة وبالذات مراحلها الأخيرة، فيذكر ان سوندرز احد مستشاري الرئيس الامريكي وصناع القرار في امريكا، ذكر انهم يعتبرون ان محادثات ليدز كانت قصيرة لأنها أفرزت على مائدة المفاوضات، مادة كثيرة وعميقة، كما تطرق سوندرز إلى نفاذ صبر السادات.

فقد ذهب إلى القدس في الخريف الماضي عندما نفذ صبره من الطريقة الامريكية من الاعداد للتوجه إلى مؤتمر جنيف، والذي شعر بأنها لن تؤدي إلى شيء، وهو الآن يفعل نفس الشيء، بعد نفاذ صبره من المفاوضة، ويسمي موقفه الجديد اي عدم استئناف التفاوض، إلا بعد استعادة الارض والسيادة، يسميه المبادرة الثانية، ويصنفها على نفس مستوى مبادرته الأولى لزيارة القدس.

وهنا يوضح لنا كامل من خلال المعطيات الامريكية أن السياسة الامريكية والاستراتيجية الامريكية هي سياسة واستراتيجية الحلول الوسط، وهو أمر يذكرنا بالاستراتيجية الاسرائيلية التي وضحت تماماً في ليدز، وتقوم على استمرار المفاوضات مع مطالبة الطرفين، بأن يفكرا على اساس الحلول الوسط أما بالنسبة للمشاكل الرئيسية فالولايات المتحدة لن تتقدم بخطط امريكية قبل مبادرة روجرز، وتقرير بروكنز وذلك لأن هذه الخطط صنعت بالولايات المتحدة ومن فراغ دون استشارة الاطراف المعنية.

ومن هذا المنطلق فان الانسحاب الاسرائيلي في رأي سوندرز يمكن ان يتم من خلال اصراره على ان اسرائيل يجب ان توافق على أنها في وقت معين في المستقبل ستنسحب

من الضفة، وعندئذ يمكن القول ببساطة: حسناً لقد جئنا للتفاوض على حل قضية الضفة الغربية فدعونا نبدأ بالتفاوضات، ودعونا لا نضع ضوابط او خطوطاً ارشادية للمفاوض حول ماذا ننتهي إليه:«حسناً من نقطة وسط هنا نحاول أن نجد طريقاً من هذه الطريقة المتوسطة».

ويضيف سوندرز أن السياسة المعقولة للولايات المتحدة هي مواصلة السعي نحو السلام للاحتفاظ بعلاقات مع الجميع وبدون هذا لا سياسة معقولة.

لقد بدا ان الاستراتيجية الامريكية هي استمرار المفاوضات حتى ينتج عنها حل وسط نتيجة تنازلات من قبل الطرفين.

ويوافق السادات على هذا المبدأ، على ان يذهب الى مؤتمر قمة يجمعه مع بيغن وكارتر، تحت تأثير طعم معين هو مشاركة الولايات المتحدة الكامل بالمفاوضات التي تقترحها سبيلاً للحل.

وهنا يتقدم محمد ابراهيم كامل، بصفته وزيراً للخارجية، باقتراح لاسلوب في المفاوضات، يقوم على التشدد في المراحل الاولى من كامب ديفد، ثم الاستجابة تدريجياً لمبادرات امريكية لتظهر المرونة دون المساس بالمبادىء الاساسية التي تستند اليها المواقف المصرية. لكن تخطيط كامل لم يكتب له التنفيذ، لظهور ما يسميه تصرفات غريبة وعلامات استفهام... وما تلا ذلك من تنازلات غير متوقعة:

فالرئيس السادات ما لبث ان تقدم بمشروع اطار سلام ولد سفاحا! كما يصفه وزير الخارجية، وينص هذا المشروع على ان: «ترسم الحدود بين الضفة الغربية وبين اسرائيل بما يحقق اماني الفلسطينيين وامن اسرائيل». ولم يلبث ان قال فانس ان الموقف واضح بالنسبة للمستعمرات الاسرائيلية في سيناء وانهم يتفقون معنا في وجوب ازالتها. اما المستوطنات في الضفة الغربية وغزة فازالتها مشكلة كبرى. ولا يمكن التوصل باي حالة الى موافقة اسرائيل على ذلك، لان ذلك يهدد أمنها، وهذا يوضح مدى الخلل الذي أصاب بداية المرحلة الاخيرة من المبادرة. فالامن الاسرائيلي يتعلق باقتناص الارض والابقاء على مبدأ الاستعمار الاستيطاني...ثم هنالك هذه المعادلة الصعبة..التي من المستحيل حلها: الامن الاسرائيلي والاماني الفلسطينية معا!

وهنا يصرح الرئيس الامريكي ايضا ان حلا ناقصا افضل من لاحل، والعودةالى

المواجهة العسكرية. والاخطر من هذا انه اضاف انه بالنسبة للانسحاب وتحديد الحدود- الذي جاهد من اجلهما، جهاز وزارة الخارجية برئاسة محمد كامل جهادا باسلاً-فانه يمكن التوصل الى تفاهم على هذه النقطة على اساس الصيغة التي اتفق عليها الرئيس السادات مع شيمون بيريز في فيينا، والتي تقوم على المواءمة بين أماني الفلسطينيين ومتطلبات امن اسرائيل.

وهنا يسجل كامل اعتراضا قويا على الرئيس كارتر الذي كان يتحدث الى الوفد المصري، حيث قال كامل: «اني لن اتكلم عن سيناء وانما اتكلم عن حل للقضية الفلسطينية التي هي جوهر النزاع ومفتاح السلام الشامل العادل الذي ننشده» واضاف: «لقد فهمت انكم ترون اتخاذ مشروع الحكم الذاتي الذي قدمه بيغن في الاسماعيلية كاساس للتسوية، في حين ان هذا المشروع مرفوض مصريا وعربيا تماما. كما ان بعض الافكار التي طرحها الرئيس كارتر، هي ترديد للدعاوي الاسرائيلية المغرضة مثل تأجيل بحث السيادة على الضفة الغربية وغزة، باعتبار انها غير واضحة، في حين ان لا شبهة في ان حق السيادة على هذه الاراضي للشعب الفلسطيني، الذي عاش على تلك الاراضي لالاف السنين بدون انقطاع». وهنا كرر كامل المطالب الفلسطينية القائمة على الانسحاب، وقيام سلطة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة، وتجميد المستوطنات، وعودة الافراد والأسر المقسمة.

لكن صوت محمد ابراهيم كامل، كما يظهر، ضاع في البرية! فهو كمن يصرخ في واد او ينفخ في رماد! وتبين له بعد وقت أن المصريين عندما استنجدوا بالامريكان ليخلصوا لهم الحق العربي من براثن الصهاينة الاسرائيليين... كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار! وهو يوضح الموقف المصري بين المطرقة والسندان بهذه المعادلة الرقمية:

المشروع المصري = ١٠٠ بالمائة.

المشروع الامريكي = ٥٠ بالمائة افكار مصرية + ٥٠ بالمائة افكار اسرائيلية.

المشروع الامريكي بعد عرض المشروع المصري والاسرائيلي عليه يصبح ٢٥ بالمائة منه افكار مصرية و٧٥ بالمائة افكار اسرائيلية.

اما الترجمة الفعلية لهذه الارقام فقد تمثلت في الاعتراض المصري على الجوانب السلبية في المشروع الامريكي والذي تمثلت في الجوانب التالية:

- اختراق وتشويه صيغة اسوان التي تدعو الى تحقيق الحقوق الاساسية للفلسطينيين، واحاطة الاشارة الى حق تقرير المصير بالغموض.

- عدم النص على الانسحاب لا من سيناء ولا من الضفة.

- عدم الاشارة الى الانسحاب من القدس العربية.

- يعطي المشروع دوراً رئيسياً وسلطات واسعة في الضفة وغزة، خلال الفترة الانتقالية لاسرائيل، بينما يجعل دور مصر والاردن ثانوياً، ويكاد هذا يقتصر على توفير الحماية لاسرائيل: باختصار فان المشروع الامريكي هو مشروع اسرائيلي دما ولحماً..

ويحاول بريجنسكي ان يجد تبريراً للثغرات الواضحة في المشروع الامريكي بان يتحدث عن نظرية معينة في الاستراتيجية الامريكية، هذه النظرية التي سماها ديناميكية المواقف Dynamics of Situations مما يذكرنا بتوجهات سوندرز التي سبق الاشارة اليها اعلاه فهو يرى ان المواقف غير جامدة بل لها ديناميكية وقوة تدفعها الى التطور. وكل موقف يهيىء الظروف لموقف جديد يتداعى فيه مثل كرة الثلج التي تنحدر على قمة تل، فهي تزداد حجماً كلما تقدمت..ومن ثم فان انهاء الحكم العسكري في الضفة وغزة وممارسة الفلسطينيين للحكم الذاتي فيهما وتجميد المستوطنات الذي سيؤدي الى وقف حركة الاستيطان، كل ذلك سيكون منطلقا الى تطورات متتابعة تؤدي الى ان يصل الفلسطينيون في النهاية الى تحقيق حقوقهم المشروعة كاملاً بما في ذلك ممارستهم لحق تقرير مصيرهم.

لكن كامل - الذي فهم الموقف على حقيقته - يتحدث بكثير من المرارة والاسى والشعور بالخذلان من المعارك الاخيرة لعقد اتفاقية كامب ديفد. وهنا يركز على ليلة يسميها ليلة مناحيم بيغن...التي هجم فيها بيغن على المشروع الامريكي الذي تم الاعتراض عليه كما شاهدنا من قبل المصريين، ولنترك لوايزمن وصف هذه الليلة في مذكراته «المعركة من اجل السلام» يقول وايزمن «كان المشروع الامريكي يتكون من ١٧ صفحة من المواد المتفجرة».

وقال بيغن :«ايها السادة لقد نقل الامريكيون ببساطة الخطة المصرية» ويضيف وايزمن: «وفي خلال المناقشة ذكر كارتر انه يعتزم اثارة موضوع الحقوق الوطنية الفلسطينية بما فيها حق تقرير المصير ورفض بيغن قائلاً، ان ذلك خارج الموضوع، اذ كان

يخشى ان تؤدي مثل هذه المناقشة الى ان تفتح الاحتمال لدولة فلسطينية في المستقبل البعيد».

وعندما اقترح الرئيس تجميد المستوطنات رفض ذلك الاسرائيليون في الحال، واقترح كارتر ان تستمر وحدات اسرائيلية في التواجد في الضفة الغربية، بعد فترة السنوات الخمس، فوجد الوفد الاسرائيلي اخيراً نقطة يستطيع الاتفاق عليها مع كارتر.

ويضيف وايزمن «وعندما وصلنا الى الشرط الخامس «عدم جواز اكتساب الاراضي عن طريق القوة» أصبح رد بيغن شرسا الى اقصى حد وقال :«ان هذا لا ينطبق على حالتنا، فالأراضي التي نحتلها غزوناها في حرب دفاعية، ويجب ان تعرف يا سيادة الرئيس، انه في كل الحروب كنا ضحايا العدوان العربي». واعترض بيغن بشدة على عبارة الديباجة في تقرير ٢٤٢ «ان احتلال الاراضي بالقوة لا يمكن قبوله».

ويذهب وايزمن ايضا الى ان الرئيس كارتر لم يستطع ان يخفي غضبه اكثر من ذلك، فاطبق يده على الاوراق التي امامه والقى بقلم الرصاص من يده وعيناه الزرقاوان تتوهجان بالغضب وقال ثانية وهو يكرر الكلمات لنفسه:

«انه ينبغي عليك ان تقبل» فقال بيغن بلهجة حازمة: «السيد الرئيس أرجوك لا تهديدات»!

ولم يكن ذلك رجاء او استعطافاً لكارتر بل كان هذا تهديداً لهذا الاخير، وهكذا عندما عادت الورقة الامريكية بعد المداولات مع الاسرائيليين حولها كان نقد المصريين – وعن حق وجدارة – ايضا صارخاً.

– فالمقترحات الامريكية لم تتحدث عن تنفيذ قرارات الامم المتحدة بل عن التفاوض على أساسها، وهذا يدخلنا في حلقة مفرغة.

– ان المقترحات بالنسبة للضفة لا تتضمن ما اشار اليه الدكتور بريجنسكي من «خلق ديناميكية» بل انها تتيح لاسرائيل فرصة منع الشعب الفلسطيني من ممارسة حقوقه.

– ان المقترحات اهملت تماماً حق تقرير المصير واعطت لاسرائيل حق الفيتو بالنسبة لمباشرة هذا الحق.

– لم تتضمن الورقة نصا بشأن المستوطنات رغم ما قرره المستر فانس من وجوب ازالة

المستوطنات في سيناء وتجميدها لمدة خمس سنوات في الضفة وغزة.

وعندما عاد المشروع الامريكي إلى المصريين مرة أخرى، كان قد جرى عليه بعض التعديلات التي لا بأس بها، فقد عادت صيغة كارتر «صيغة اسوان التي تتكلم عن الحقوق الاساسية للشعب الفلسطيني في تقرير المصير والالتزام بتنفيذ قرارات الامم المتحدة» الى اصلها، واضيف لها نص منع انشاء مستوطنات جديدة في الضفة وغزة خلال التفاوض وعدم التوسع في المستوطنات القائمة.

الى هنا وكانت الامور تسير بشكل مقبول نسبيا للمصريين لكن حدث فيما يسميه محمد كامل، الساعات الاخيرة تطورات جذرية وغير متوقعة! وزاد الخلل.. الى الخلل! وقاد الخراب إلى الخراب، بحيث انتهى بكامب ديفد الى نتيجتها المأساوية بحيث اصبح مجرد ذكرها يثير مشاعر الأسى في كثير من الأوساط العربية..بحيث ربما اعتبرت اسوأ معاهدة او اتفاقية في تاريخنا الحديث كله.

ويعزو كامل الى حديث معين جرى بين دايان والسادات بانه كان سبباً في كثير من هذا الخلل او الخراب...أو كما يصفه بأنه :«كان القشة التي قصمت ظهر البعير» على الرغم من انه استغرق اقل من ساعة. اذ ان هذا الحديث كان نقطة التحول في توريطه في قبول سلسلة من التنازلات وصلت الى حد الاستسلام الكامل! وقيامه بالتوقيع في النهاية، وقد كان السادات، قبل هذه الساعات الاخيرة قد هدد بعدم التوقيع والانسحاب من المفاوضات. أجل! لقد وقع السادات على ما لم يكن يراود الاسرائيليين في اكثر احلامهم تفاؤلاً.

وهنا يحاول اسامة الباز انقاذ ما يمكن انقاذه، وقد أخبر محمد كامل ببعض التنازلات التي وافق عليها السادات، التي كان يحاول ان يتداركها في الصياغة الى حد أنه كان يصطدم بالرئيس الامريكي بعنف، وكان الاخير يقول له: ليس هذا ما وافق عليه الرئيس السادات، فيرد عليه اسامة: هذه تعليماته لي حرفياً وانا انفذها.

وهنا يصف محمد كامل الذي كاد ينفجر غيظاً من تنازلات السادات واحتار في سبب هذه التنازلات: هل سلط عليه الامريكان أسلحة خفية..هل اصبح يوجه مغناطيسياً؟ هل تحول الرئيس الوطني الى ما يشبه العبد الذليل لدى كارتر؟ أم انه تحول الى كويسلنج أمته..يتخلى عنها لحساب الاعداء؟ مما سبق الاشارة اليه عند الحديث عن شخصية السادات.

ومهما يكن من امر، وحتى ندرك فظاعة ما تم من تنازلات.. وما جرى من ابتعاد عن البدايات المصرية، فان محمد كامل يصف الخلاصة النهائية لمشروع السلام الذي جاء على هوى اسرائيل وما تحبه وترضاه، على هذا الوجه:-

انه كان يتفق في فلسفته وارضيته مع مشروع الحكم الذاتي الذي قرره بيغن في الاسماعيلية، وان ادخلت عليه تعديلات تجميلية باعطاء دور مظهري وثانوي لمصر والاردن «فيما لو اختارت الانضمام اليه» في ادارة الضفة الغربية وغزة خلال فترة الانتقال، وهذا الدور لا يقدم ولا يؤخر، انما يضر في الواقع، بينما تحتفظ اسرائيل بمقاليد الامور بين يديها، ويدعمها ويؤيدها في ذلك حق الفيتو الذي يخوله لها المشروع بالنسبة لاي اجراء لا يتفق مع مراميها وخططها في السيطرة على تلك الاراضي وابتلاعها الى النهاية.

وقبل ان يتم التوقيع على معاهدة السلام، وفي الساعة الاخيرة لمذبحة التنازلات هذه، يصر بيغن على حذف الاشارة الى عبارة: عدم جواز اكتساب الارض بالقوة وقال لكارتر: تقطع يدي ولا اوقع عليها. وكانت النتيجة ان حذفت الاشارة الى هذا المبدأ الذي يتصدر ديباجة قرار ٢٤٢.

على ان كاتب «السلام الضائع» يتحدث عن أمر يعتبره اكثر فظاعة في سيل التنازلات، فهو يعتبر الجريمة التي لا تغتفر للرئيس كارتر هي خضوعه للضغوط الاسرائيلية التي ادت الى حذف النص على تجميد المستوطنات في الضفة الغربية وغزة خلال الخمس سنوات الانتقالية ولم يقف الامر عند هذا الحد من التدهور بل لقد ضاعت القدس ايضاً، وكان كل ما جرى من اجراء لتثبيت الحق العربي فيها..هو تبادل قصاصات اوراق متبادلة بين كل من مصر والولايات المتحدة من جهة...ولتثبيت الحقوق الاسرائيلية فيها، لجأت اسرائيل الى الكتابة الى الولايات المتحدة من جهة اخرى.. وقد وصف الخبير القانوني السفير نبيل العربي هذه الرسائل المتبادلة بين كل طرف من الطرفين: المصري والاسرائيلي والطرف الثالث الولايات المتحدة، بأنها لا تمتلك أي قيمة قانونية او عملية.

ويختم كامل كتابه الوثائقي بتلخيص لتقييمه التاريخي للمعاهدة بهذه الكلمات التي لا ينقصها الصدق ولا الصراحة، والتي قالها للمستر سايروس فانس، وزير الخارجية الامريكية: انكم تخليتم عن مواقفكم المعلنة الثابتة بشأن النزاع العربي- الاسرائيلي وعن كل المبادىء الدولية واعددتم مشروعاتكم من منطلق ما يتقبله ويرفضه بيغن، ومارستم

كل الضغوط على السادات وحده، وفي النهاية توصلتم الى هذا الاتفاق الذي سيزيد مشكلة الشرق الاوسط تعقيداً ولن يحقق سلاماً بل سيكرس الفوضى والاضطراب وستندمون على هذا الاتفاق الذي يضعف السادات وقد يؤدي الى الاطاحة به!

ترى هل كان محمد ابراهيم كامل محقاً في استنتاجه التاريخي هذا؟ هل كان محقاً في حكمه على معاهدة كامب ديفد؟ اظن ان الاجابات التاريخية على التقييم التاريخي لمحمد ابراهيم كامل تتطابق وتتفق مع ما ذهب اليه: فبالنسبة لمشكلة الشرق الاوسط...فان الشرق الاوسط بمجمله الآن برميل من البارود...من شرقه الى غربه...ومن شماله الى جنوبه...والبقع الملتهبة فيه اكثر من البقع الساخنة...والبقع المعتدلة ظاهرا تؤذن بانفجار الله يعلم الى اين سيصل مداه! وبالنسة للسلام فهو لم يتحقق..فقد قامت اسرائيل بحرب أخرى ضد العرب في لبنان...وغزت كل أرض عربية مجاورة او بعيدة، تقريبا من لبنان الى البقاع... الى المفاعل الذري العراقي ووصلت في الغرب الى حمام الشط! وان اردت مثالاً اخر فانظر الى الضفة الغربية وغزة والتي هي في جوهرها انما هي رد على ذلك الظلم الفظيع الذي مورس ويمارس على الاهل فيها، والذي كرسته معاهدة كامب ديفد، تلك المعاهدة التي حرمت الفلسطينيين من كل الحقوق التي يستحقها كل شعب في العالم: الاستقلال على أرضه، وتكامل هذه الارض ودولة مستقلة، وحق تقرير المصير.

وأما بالنسبة للسادات فان المعاهدة، بما لا شك فيه هي التي أضعفته وأثرت تأثيراً هائلاً على مصداقيته بالنظر لقبوله بحل منفرد، حلا لا يحقق الاهداف العربية.. وانما حل يتنازل عن هذه الحقوق... وبالنظر لانه خرق حاجز الرفض لعدو.. لا يزال وما انفك يمارس العنف البنائي القائم على الفلسفة الصهيونية التوسعية الاستيطانية ذات النزعة العدائية القاتلة ضد الشعب العربي.. ومن هنا وضمن اشياء واسباب اخرى فقد انتهى الى النهاية المأساوية المعروفة...

★ ★ ★

وبعد لقد قص علينا محمد كامل قصة السلام الضائع او كامب ديفد... كأروع ما يكون القصص.. واكثره درامية... ولكن بلغة سياسية وادب سياسي مبين.. ولعل اهم حكمة يمكن استنتاجها من مجمل هذه القصة، التي لا يمكن استجلاء جوانبها كاملة الا بالعودة الى الاصل، هي: في النهاية لا يصح الا الصحيح!!